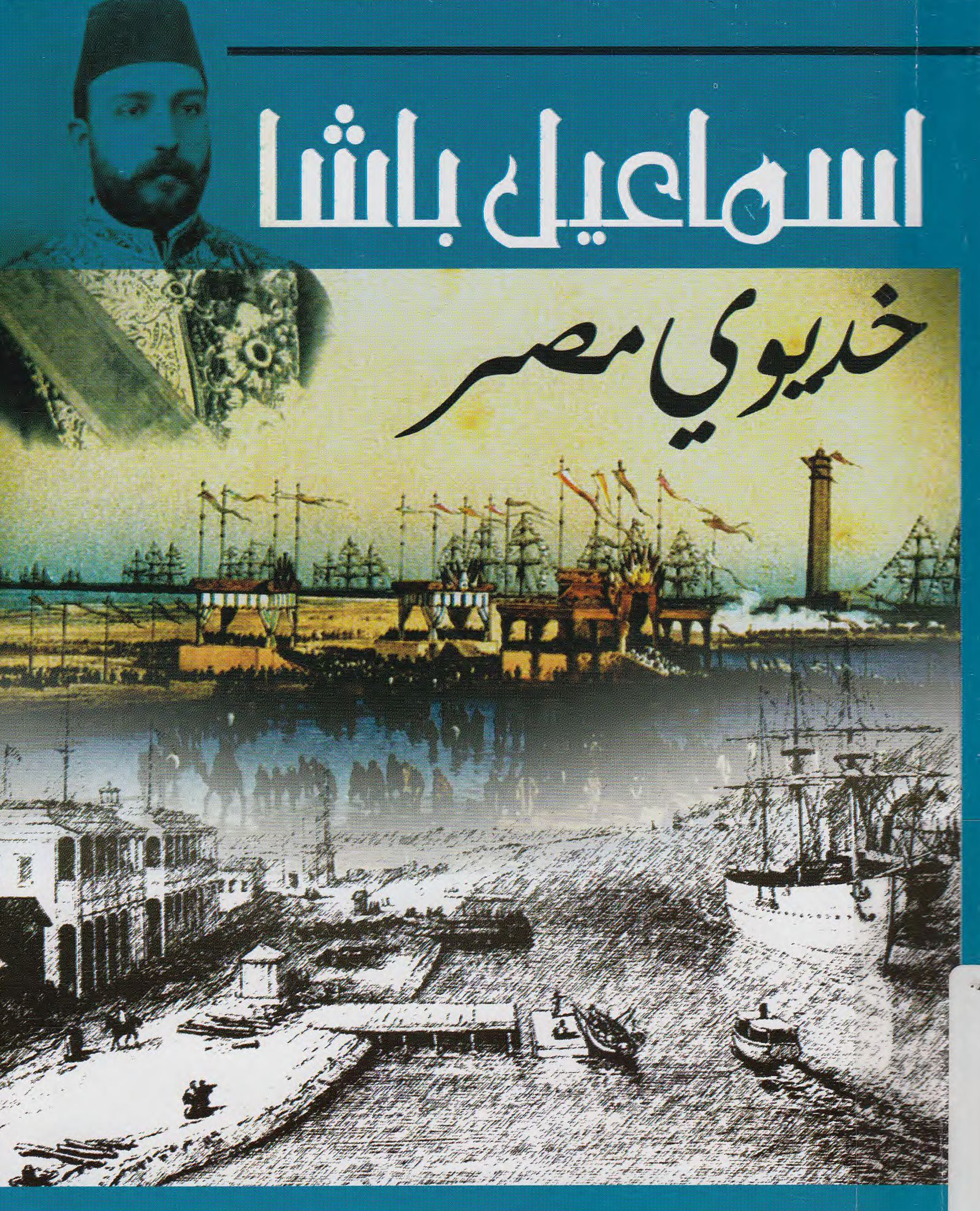


اسماعيل باشا

خديوي مصر

د: أحمس حسن صبحي

دار الكتب العلمية
للنشر والتوزيع
القاهرة

8

إسماعيل باشا

(خديوى مصر)

....

د. أحمد حسن صبحي

صبحي، أحمد حسن
إسماعيل باشا: خديوي مصر / أحمد حسن صبحي. ط ١ - القاهرة
دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع، ٢٠١٠
٦١ ص، ١٤× ٢٠ سم
تدمك: ٣ ٩٧٠ ٢٨٧ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - مصر - الملوك والحكام.
٢ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - عصر إسماعيل (١٨٦٣- ١٨٧٩م)
أ. إسماعيل باشا (خديوي مصر)
٩٢٣,١٦٢

رقم الإيداع ١١٤٩٤ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي 3 - 970 -287 - 977 - 978

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين - القاهرة

☎ ٢٧٩٤٨٦١٩ - ٢٧٩٥٤٢٢٩

فاكس: ٢٧٩٢٨٩٨٠

لمزيد من المعلومات يرجى زيارة موقعنا على الإنترنت

www.sbhegypt.org
info@sbhegypt.org
sbh@link.net

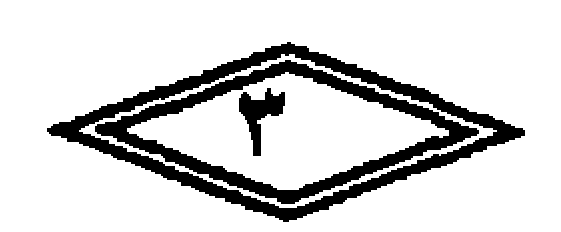
بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

ظلت مصر المحروسة منذ عهد محمد على باشا مطمعا للسلطان العثمانى، الذى تمكن محمد على باشا من انتزاعها من براثنه بقوة جيشه وعزيمة أبناء مصر الذين انخرطوا فى سلك الجندية تحت قيادة إبراهيم باشا. لم يترك سلاطين الدولة العثمانية فرصة لاستعادة سلطانهم على مصر دون أن يغتنموها، لكن محمد على باشا لم يمكنهم من ذلك أبدا. وعلى الجانب الأخر لم يستطع هو أن ينال استقلال مصر الفعلى، بسبب معارضة إنجلترا وفرنسا لاستقلال مصر.

كانت إنجلترا تقف بالمرصاد لمصر، تريدها لنفسها مستعمرة تصول فيها وتجول، تلتهم خيراتها وتتخذها نقطة ارتكاز لاحتلال ما تيّسر لها من أقاليم أفريقيا، ولتكون مصر هى نقطة التقاء ما تنهبه من خيرات الهند، بالأسواق الإنجليزية والأوروبية.

أدركت انجلترا أن استقلال مصر من خلال حكم محمد على باشا، سوف يعطل من خططها لاحتلال مصر. كان تخطيط الإنجليز، أن الاستيلاء على مصر من خلال ولاية العثمانيين عليها أسهل كثيرا من استعمار المحروسة المستقلة. وعلى صعيد آخر، كانت فرنسا لا تزال هى



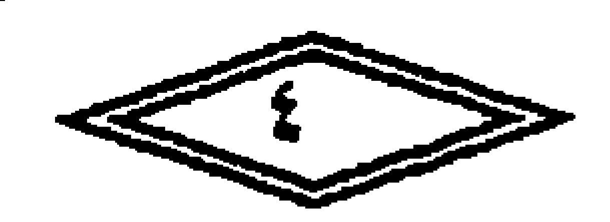
الأخرى تسعى لاستعادة نفوذها فى مصر الذى بدأته بغزو بونابرت، والذى انتهى بطردهم على أيدى المصريين. كان الفرنسيون يسعون إلى إنشاء علاقات صداقة وتعاون مع حكام مصر، تسمح لهم بالتغلغل فيها، انتظارا للوقت المناسب للوثوب عليها والتهامها.

كانت العلاقات الدولية، والتوازن الأوروبى، تمنع إحدى القوتين من الإنفراد بالتهام مصر. كل منهما يسعى بوسائله الخاصة لتثبيت نفوذه فى مصر من خلال العلاقات مع السلطان العثمانى، فى زمن كانت الإمبراطورية العثمانية تتداعى أركانها وتترنح من كثرة الحروب والفساد الذى أحاط بها ومؤامرات اليهود داخلها وخارجها بهدف تقطيع أوصالها وتقسيمها بين الدول الأوروبية، وكانت مصر هى الجوهرة التى يسعى إليها الإنجليز والفرنسيون.

مات إبراهيم باشا بطل مصر، ومات محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة، وخلف بعدهم سلالة الأسرة العلوية، فبدأت فرنسا وإنجلترا استثمار كل الوسائل الممكنة، التى لم يتمكنا من استغلالها خلال حياة محمد على باشا، عن طريق تقديم القروض لمصر من البنوك

اليهودية الفرنسية والإنجليزية، حتى غرقت مصر فى تلك الديون، وجاءت الفرصة الملائمة للدولتين الاستعماريتين فى السيطرة على مقدرات مصر المحروسة.

عندما تولى إسماعيل باشا، ابن إبراهيم باشا بطل مصر



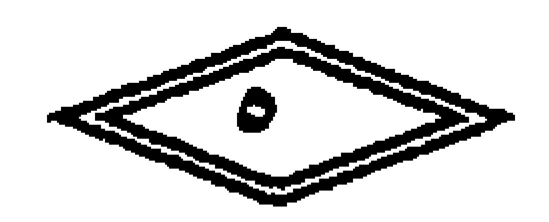
الحكم، استطاع أن يحصل على فرمان عثمانى بمنحه لقب " الخديوى "، وهو اعتراف ضمنى باستقلال مصر الفعلى عن الدولة العثمانية،وإن كان للسلطان على مصر شكل السيادة الخارجية، وتسلم مبلغ الجزية السنوية التى تدفعها مصر.

تسلم إسماعيل باشا حكم مصر بعد وفاة عمه سعيد باشا، الذى بدأ فى عهده نزيف القروض الأجنبية، وبداية مشروع قناة السويس، وتغلغل نفوذ الدولتين بالفعل فى القيام بالمشروعات التى استنفذت أموال مصر كلها وألجأتها إلى الإستدانة بشروط مجحفة، أدت فى نهاية الأمر إلى سيطرة إنجلترا على مصر الحبيبة واحتلالها.

لقد تحمل إسماعيل باشا كل أخطاء عباس حلمى باشا، وأخطاء سعيد باشا التى ارتكباها، وورث تركة مثقلة بالديون، اضطرته إلى المزيد من الإستدانة، دون إدراك منه بالتخطيط اليهودى المحكم بإغراق مصر فى ديونها حتى تصبح لقمة سائغة فى يد إنجلترا أو فرنسا، وكلتاهما تحت السيطرة اليهودية التامة.

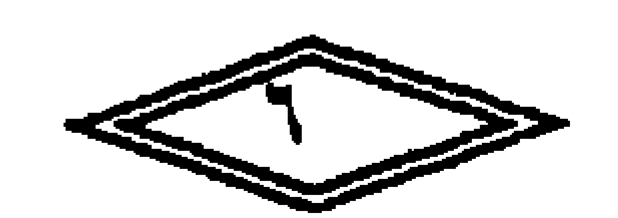
تحمل الخديوى إسماعيل الأخطاء، وأدانه التاريخ بأنه كان السبب فى الإستدانة وجرّها إلى مستنقع احتلالها. أتهم بالإسراف الشديد، وكان المثل هو حفل افتتاح قناة السويس وما صرفته مصر على ذلك الاحتفال.

وعندما طرد الخديوى إسماعيل الوزيرين الإنجليزى



والفرنسى المفروضين عليه من وزارة مصر، وشكل حكومة مصرية وطنية، رافضا الهيمنة الأوروبية على مقدرات بلده. سعى الإنجليز لدى السلطان العثمانى المتهالك لكى يعزله من الحكم ويعين ابنه محمد توفيق باشا خديوى لمصر. ظلم الخديوى إسماعيل فى حياته وفى مماته. استطاع أول ملك لمصر فى العصر الحديث، أن ينقل مصر من بلد متخلف إلى بلد متحضر، وجعل من عاصمة المحروسة، مدينة تضارع فى جمالها وأناقتها أرقى العواصم الأوروبية بما شيده من قصور وطرق ودار للأوبرا وحدائق، لازالت حتى وقتنا الحالى تنبض بالحياة، شاهدة - ما تبقى منها - على النهضة الحضارية التى أسسها إسماعيل باشا، خديوى مصر.





١

وقف المدرس بين تلاميذه على شاطئ بحيرة التمساح فى الإسماعيلية، وأشار إلى البواخر التى تعبر قناة السويس، وقال لتلاميذه:

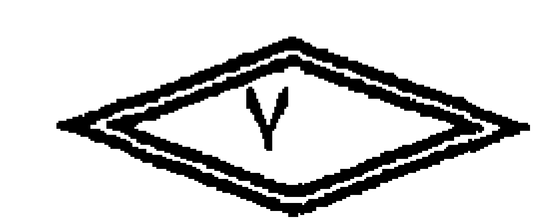
ها نحن أمام قناة السويس العظيمة التى حفرها المصريون بسواعدهم. هذه القناة التى أهدت العالم كله طريقا مائيا يصل بين أطراف الدنيا، يقرّب المسافات والمشقة التى يعانيها البشر فى رحلاتهم البحرية الطويلة، وينشط التجارة الدولية.

قال أحد الطلبة:

- لكنها جرّت على مصر الكثير من المشاكل يا أستاذ.

ابتسم المدرس وقال:

- العبرة بالنهاية يا بُنى. عادت القناة لمصر وأصبحنا. أصحاب الأرض والماء. هذه القناة رغم كل المشاكل التى تتحدث عنها،هى عنوان مصر على مرّ العصور منذ إنشائها وحتى الآن. حفرناها بسواعدنا، ونظرنا



إليها وغيرنا يستولى على خيرها الذى تذّره، ونتعايش مع من يحتلون أرضـــنا، ثـــم نطردهم من مصر، ونقاوم محاولة معاودة احتلالهم لنا ونجبرهم على الخروج من أرضنا، ثم نسترد حقنافى القناة ونعيدها إلى مصر.

ران الصمت على الواقفين فقال المدرس:

- هكذا تحقق قول إسماعيل باشا عندما قرر استكـــمال. حفر القناة حين قال لهم: أريد أن تكون القناة لمصر، لا أن تكـــون مـــصر للقناة.

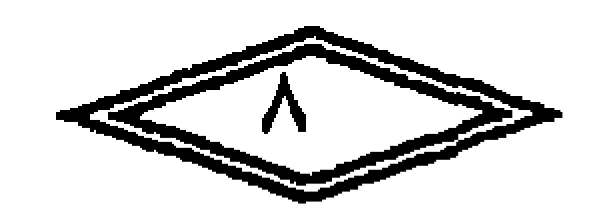
فمنذ أن شقت القناة، كانت مصر مسخرة للقناة.ملـــكا لها. لكن قـــناة السويس عـــادت ملكا لمصر. يجب أن تعرفوا يا أبنائى، أن مئات السنين فى تاريخ. أمة، ليس بالشئ الكثير. جيل يذهب ويأتى بعده جيل. آخر يرث مسئولية الدفاع عن مصر. من كـــان يظن. يوما أن يهب المصريون لقتال الفرنـــسيس. العصىّ. أمام البنادق، والمقلاع أمام المدفع. جيل نـــما فـــى. أرض مصر بعد مئات الســـنين من خـــمول أجـــيال وانصياعها لحكم القوة الغاشمة وجبروت الحكام.

قال طالب يسأل مدّرسه:

- **كيف تولى إسماعيل باشا الحكم يا أستاذ؟**

قال المدرس:

- كان نظام الوراثة الذى تقرر لأسرة محمد على باشا،



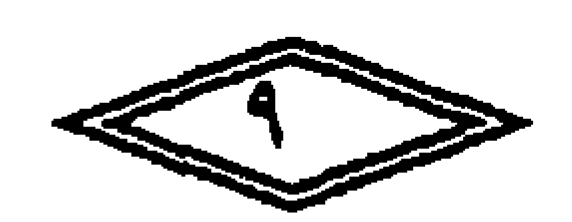
أن يتولى الولاية على مصر أكبر الأبناء، أو الأحــفاد سنا من الأسرة العــلوية.عندما توفى إبراهيم باشا فى حياة أبيه محمد على باشا، كان عباس حلــمى باشا، ابن طوسون باشا بن محمد على باشا، هو أكبر أفراد الأسرة العلوية سنا.وعندما مات عباس باشا، تولى سعيد باشا الإبن الأكبر محمد على باشا الحكم. وعندما مات سعيد باشا، كان إسماعيل باشا هو أكبر. السلالة سنا، بعد موت أخيه، فــتولى الحكم كان. إبراهيم باشا بطل مصر له ثــلاثة أولاد، أوســـطهم إسماعيل باشا.

قال طالب ثان:

- لماذا تولى إسماعيل باشا الحكم ولم يكن اكبر أخوته؟

قال المدرس:

- كان أخوه الأمير أحمد رفعت أكبر منه سنا وهو ولى العهد فى عهد سعيد باشا، وحــدث أن دعا سعيد باشا .الأسرة العلوية إلى حفل بالإسكندرية لم يذهب إليــه إسماعيل باشا لمرضه. وأثنــاء عودة الأمير أحمــد رفعت وعمه الأمير عبد الحليم - ابن محمد على باشا الأصغر - بالقطار، سقط بهم فى النيل عند كفرالزيات فغرق الأمير أحمد رفعت ونجا عمه الأميرعبد الحليم. وهــكذا أصبح إســماعيل باشا بن إبــراهيم بــاشا. وليا للعهد، طبقا للنظام الوراثى المقرر للأسرة.



تساءل أحد الطلبة قائلا:

- هل تولى إسماعيل باشا مناصب هامة فى الحكم قبل توليه حكم مصر؟

قال المدرس:

- هذا سؤال هام. نعم لقد أعده أبوه وجده منذ كان فى الرابعة عشرة من عمره. بعثوا به إلى فينا لعلاج عينيه. والدراسة بها وسافر إلى باريس بعد سنتين لينضم إلى البعثة المصرية هناك فنال حظا من دراسة العلوم الهندسية والرياضية والطبيعية وأتقن اللغة الفرنسية، فنشأت ميوله الباريسية التى لازمته فى حياته والتى قرر معها أن يجعل من القاهرة باريسا ثانية. عندما مات أبوه وتولى عمه عباس باشا الحكم، الذى كان يحقد على كل أفراد أسرته، سافر إسماعيل وبعض الأمراء إلى الأستانة فعينه السلطان عبد المجيد عضوا بمجلس أحكام الدولة العثمانية وأنعم عليه بالباشوية ولم يعد إلى مصر إلا بعد مقتل عباس وقد عينه عمه سعيد باشا رئيا لمجلس الأحكام فى مصر، وأوفده فى مهمة إلى الإمبراطور نابليون الثالث وكان سعيد باشا يثق فيه، فاستخلفه مرتين وجعله قائم مقام أثناء غيبته عن

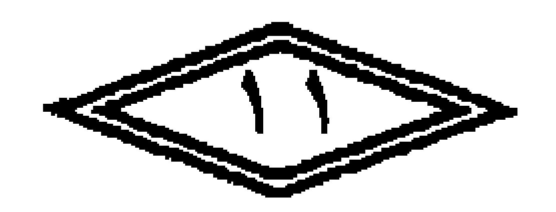


مـــصـر كـــمـا كلفه بإخماد ثورة فى السودان، فقام بالمهمة دون سفك أى دماء.

نظر المدرس إلى تلامذته وقال له:

ــ أرجو أن تجلسوا أمام البحيرة، حتى أقــص عــليكم تاريخ مصر خلال الفترة التى سبقت حكم إســماعيل بـــاشا بإيجاز، ثـــم ننتقل إلى سرد تاريخ هذا الرجل العظيم الذى انتقل بمصر من عــهد إلى عــهد آخــر جعل من القاهرة إحدى العواصم الــمتميزة فى العالم كله.

* * *



2

مات إبراهيم باشا، وكان عباس حلمى باشا بن طوسون باشا بن محمد على باشا فى الحجاز، فاستدعوه لتولى الحكم بصفته أكبر سلالة محمد على سنا. تولى الحكم يوم ٢٤ نوفمبر عام ١٨٤٨، وكان معروفا بقسوته وسوء الظن بالناس وكراهيته وحقده على أسرته. وكان عباس باشا ميّالا للعزلة، فبنى قصوره فى الصحراء بعيدا عن المدن، وكان أهم قصوره فى الصحراء، هو ما أسماه "العباسية" التى سميت المنطقة كلها باسم القصر.

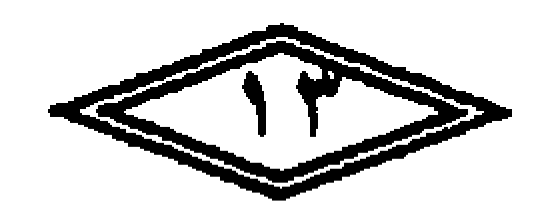
عاش وهمّه الأكبر هو تغيير نظام الوراثة ليجعل ابنه الهامى باشا وليا للعهد بدلا من عمه سعيد باشا، الذى ابتعد عن عباس باشا وأقام فى الإسكندرية. كان عباس باشا فى سبيل تحقيق أمله مستعدا لعمل أى شئ يقربه من تحقيق ذلك الحلم، واستغل الإنجليز ذلك فتقربوا منه، يحاولون إيهامه بأنهم يسعون لدى السلطان العثمانى لتغيير نظام الوراثة وجعله فى أولاد عباس باشا وحده.

وجد الإنجليز فى عباس باشا ضالتهم، فقد تراجعت حركة النهضة والإصلاح والتقدم التى ظهرت أيام محمد على وإبراهيم باشا، فقام باستبعاد الفرنسيين من ذوى العلم. فساءت حالة المدارس فى عهده بعد أن الغى معظمها، وقام بإبعاد العلماء إلى السودان بحجة إنشاء مدرسة ابتدائية بها. وقام عباس باشا بايعاز من الانجليز بإغلاق الكثير من المصانع بحجة الاقتصاد فى النفقات.

كانت قسوة عباس باشا، دافعا له لكى يعنى باستتباب الأمن فى البلاد، فمارس رجاله الشدة والقوة فى الضرب على أيدى الأشيقاء وقطاع الطرق، مما أدى إلى اختفاء تلك الطبقة، فانتشر الأمن فى البلاد خلال عهده.

أهمل الجيش الذى بناه جده وعمه بالدم والعرق، واستدعى قوة من الجنود الأرناؤوط تقدر بستة آلاف جندى، جعلهم حرسه الخاص ومنحهم العديد من المزايا التى لم يكتفى بها الجنود، فعادوا إلى عبثهم وظلمهم للمصريين وكأنه قضى على الأشيقاء وقطاع الطرق واستبدلهم بآخرين أشد منهم ظلما وقسوة فى ظل حماية من الوالى.

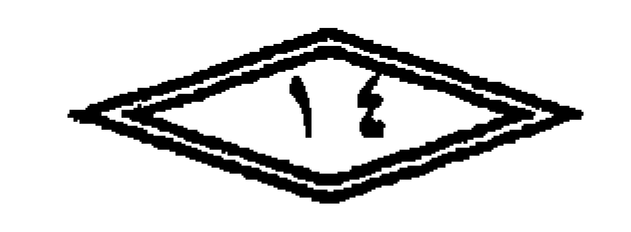
وساءت حالة الأسطول المصرى فى عهده واضمحلت البحرية المصرية، فقام بتسريح عمال الترسانة وتوقفت أعمال بناء السفن وإصلاحها.



دخلت الدولة العثمانية الحرب ضد روسيا عام ١٨٥٣ فيما عرفت بحرب القرم، وتوغل الجيش الروسى فى أراضى الإمبراطورية، فبعث السلطان عبد المجيد إلى عباس باشا يستغيث به ويطلب إرسال جيش مصرى لمساعدة العثمانيين فى الحرب. واستجاب عباس باشا الذى يسعى بكل الوسائل لاسترضاء السلطان العثمانى، فأرسل جيشا مصريا من عشرين ألف جندى للاشتراك فى حرب القرم. وكان جند مصر فى تلك الحرب مثالا للشجاعة والقتال كعادتهم واستطاعوا وقف الزحف الروسى فى ملاحم لا يزال التاريخ يذكرها لهم بالفخر والبطولة.

لم يهتم عباس باشا بإقليم السودان، بل أهمله تماما. وكانت كل تلك العوامل سببا مباشرا لزيادة تغلغل الإنجليز فى إدارة الشئون المصرية بطرق مستترة وغير ظاهرة، يخططون ببطء وفى هدوء لبسط نفوذهم على مقدرات مصر، مستغلين اعتماد عباس باشا عليهم فى إسداء المشورة له بشأن سياسته.

أهمل التعليم، فعادت أشباح الجهل تخيّم على المصريين، فالتقدم العلمى لا يخدم سياسة الانجليز. أغلق المصانع فتفشت البطالة التى تسبب ارتباكا للإدارة الحكومية والوالى، وهو ما ينشده الإنجليز.



قام الانجليز بزرع الخوف في قلب عباس باشا من الجيش المصرى، فقام بتسريح عدد كبير من الضباط المصريين وانخفض عدد الجنود، وجاء بجيش من الأرناؤوط لحمايته.

ولعب الإنجليز دورهم في إهمال عباس باشا للسودان، تمهيدا لاستيلائهم عليه. فقد بدأ الإنجليز في التسلل فرادى إلى إقليم السودان وتولى بعض المناصب الإدارية به، تمهيدا لتحقيق مخططهم.

ويمكن اعتبار كل النفوذ الانجليزى السابق، تأثيرا سلبيا على السياسة العامة لمصر، رغم إيجابيتها بالنسبة للهدف الإنجليزى الذى يسعون لتحقيقه على المدى الطويل.

كان النفوذ الانجليزى قد تمكن من عباس باشا، تحت وهم مساعدته لدى السلطان العثمانى من أجل تغيير نظام الوراثة فى مصر، وجعله لسلالة عباس.

باشا فقط. كان السفير الإنجليزى فى الأستانة هو حلقة الاتصالات بين الإنجليز وعباس باشا. استطاع الإنجليز الحصول على عقد إنشاء طريق السويس - القاهرة.

واضعين نصب أعينهم، حاجتهم إلى هذا الطريق الممهد لنقل تجارتهم من الهند برّا حتى القاهرة، ثم بالنيل حتى الإسكندرية ومنها إلى بريطانيا. قدمت مصر العمال ومواد البناء، ونال الإنجليز الطريق.

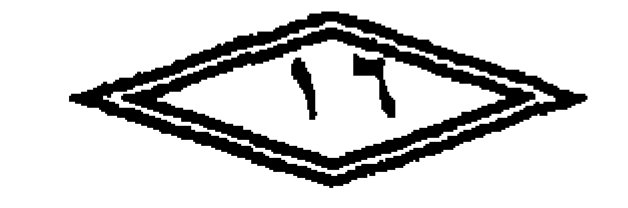


استطاع الإنجليز بعد انتهاء إنشاء الطريق، إقناع عباس باشا بمد خط للسكة الحديد من الإسكندرية حتى القاهرة، وهم يرون أن مثل ذلك الخط سوف يوفر لبضائعهم القادمة من الهند وقتا كبيرا يفيد تلك التجارة. وقد وافق عباس باشا على المشروع الذى وصل إلى مدينة كفر الزيات. وقدمت مصر أيضا عمالها وأموالها للإنجليز الذين يقومون بالإشراف وتوريد احتياجات المشروع بالسعر الذى يفرضونه على عباس باشا.كانت قسوة عباس باشا وميله إلى العزله، وكراهيته لأسرته، أسباب مباشرة لابتعاده عن المصريين وخوفه.

من الجيش المصرى، فاستعان بجيش من الجنود الأرناؤوط لحمايته من أسرته ومن الجيش. قرّب إليه ضباطه الأرناؤوط وأغدق عليهم الأموال والإقطاعيات ومنحهم الامتيازات فعادت سطوتهم على أهل مصر مرة أخرى.

جاءت نهاية عباس باشا على يدىّ جنديين من حرسه الأرناؤوط. ويرجع المؤرخون أسباب قتله إلى قصتين مختلفتين. الأولى مفادها أنه عاقب بعض الضباط الأرناؤوط لتكلمهم عنه بالنميمة، ثم عفا عنهم، فتآمروا عليه ورشوا حارسيه فقتلاه فى سريره.

والقصة الثانية أن عمته الأميرة نازلى التى كانت تقيم بالأستانة، بعثت إلى مصر بمملوكين من مماليكها،

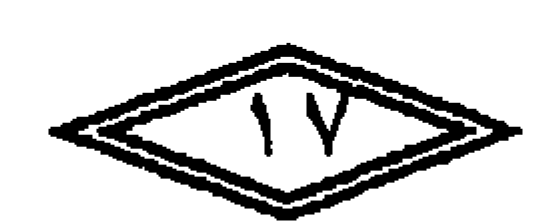


فاشتراهما عباس باشا وقربهما إليه وعينهما حارسين خاصين له فقتلاه.

وكيفما كانت القصة الحقيقية، فإن عباس باشا قتل وهو نائم في سريره يوم ١٤ يوليه ١٨٥٤ على يد جنده الأرناؤوط الذين جاء بهم لحمايته.

حاول بعض أنصار عباس باشا من حاشيته، أن يجعلوا الحكم من بعده لابنه إبراهيم إلهامى باشا الذى كان وقتئذ فى أوروبا، فاتفقوا على استدعائه لتولى الحكم. وكان سعيد باشا ابن محمد على باشا وهو أحق الأمراء بالولاية طبقا للنظام الوراثى،مقيما بالإسكندرية. كتب المتآمرون إلى محافظ الإسكندرية يطلبون منه السيطرة على الثغر حتى يحضر إلهامى باشا، لكن المحافظ لم يوافق على المؤامرة وأطلع سعيد باشا على الخطاب، فأعلن توليه العرش. وعاد سعيد باشا وأفراد الأسرة المقيمين بالإسكندرية المبتعدين عن العاصمة لما بينهم وبين عباس باشا من العداء، والنفور، إلى القاهرة. ذهب سعيد باشا إلى القلعة وتولى زمام الحكم.

ولد سعيد باشا فى القاهرة عام ١٨٢٢، وأحاطه أبوه محمد على باشا برعايته واختار له الانخراط فى السلك البحرى، فدربه على الفنون البحرية وأرسله إلى أوروبا للاستزادة من التعليم. كان محمد على باشا مصرا على أن يعامل ابنه سعيد باشا نفس المعاملة التى يلقاها أقرانه من

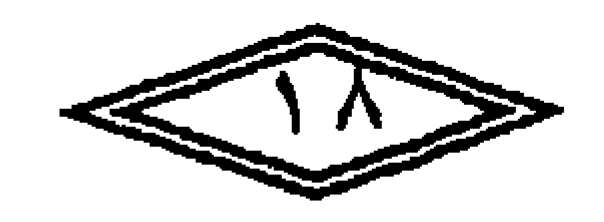


الضباط المصريين. وقد أثمرت تلك السياسة الحكيمة التى اتبعها محمد على باشا فى تنشئة ابنه سعيد باشا، فأصبح الضابط سعيد باشا على علاقة وثيقة بضباط البحرية، وتولى بعد تدريبه قيادة إحدى البوارج واشترك فى الحروب تحت قيادة أخيه الأكبر بطل مصر إبراهيم باشا.

تعلم فى البحرية ومن أخيه وأبيه، طيبة القلب والشجاعة والصراحة والميل إلى الخير وحب العدل. وجعله أبوه محمد على باشا معاونا لناظر البحرية وقومندان الأسطول، وأصدر له أمره بأن يمتثل لأوامر قائده ويؤدى له التعظيم العسكرى، فعوّد محمد باشا ابنه احترام النظام والرؤساء.

ارتقى سعيد باشا فى المراتب البحرية حتى وصل فى أواخر عهد أبيه إلى منصب قائد عام الأسطول المصرى، فكان لنشأته تلك، تعلم المبادئ الديمقراطية، مما جعله عندما تولى العرش يميل إلى المصريين، ويعمل على ترقيتهم وتقدمهم ورفاهيتهم.

كان فردينان دى ليسيس نائبا للقنصل الفرنسى فى مصر أيام حكم محمد على باشا. نشأت بينه وبين سعيد بن محمد على صداقة عندما قام بتعليمه الفروسية التى كان الفرنسى نابغا فيها. وصار سعيد، الأمير الصغير ابن الوالى صديقا مخلصا لنائب القنصل الفرنسى، يمضيان الوقت معا فى



ركوب الخيل. واستمرت تلك الصداقة على مدى السنوات الطويلة، إلى أن تولى سعيد باشا الحكم، فجاء فردينان دى ليسبس إلي القاهرة للقاء صديقه الوالى الجديد لمصر سعيد باشا، بعد أيام قليلة من توليه الحكم.

رحب سعيد باشا بصديقه الفرنسى القديم واصطحبه معه فى رحلة إلى الإسكندرية، وقد استعرض دى ليسبس مهارته فى ركوب الخيل أمام ضباط الجيش المصرى أثناء الرحلة، حيث قفز بحصانه فوق أحد السدود، فاستولى على ألباب الفرسان المصريين بموهبته وامتيازه.

عرض الفرنسى على صديقه سعيد باشا مشروعا لإيصال البحرين الأحمر بالمتوسط بقناة سوف تعود بالخير على مصر. عرض سعيد باشا على ضباطه الاقتراح، فوافقوا عليه بالاجماع،إعجابا بمهارة الفرنسى فى امتطاء ظهور الخيل، واستجابة لرغبة الوالى بعد إحساسهم برغبته فى عمل المشروع.

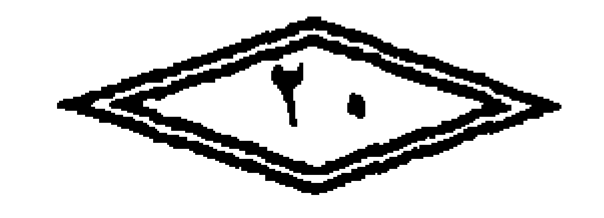
لم يضيّع دى لسيبس الفرصة، فقام فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤، بتوقيع عقد الامتياز الأول لشق قناة السويس بتأسيس شركة عامة لحفر القـــناة واستثـــمارها لمدة ٩٩ سنة من تاريخ فتحها للملاحة. وعاد الفرنسى إلى بلاده وفى يده العقد ليبحث عن التمويل والتشاور حول التنفيذ.

بعد نحو ثلاثة شهور فقط من تولى سعيد باشا الحكم، استطاع الفرنسى فردينان دى لسيبس أن يحصل على عقد



حفر قناة السويس من الوالى المصرى. ويدل هذا الأمر على عدة أمور. أن الصداقة الشخصية مع الحاكم، يمكنها أن تلعب دورا مؤثرا فى مستقبل أى أمة، وأن غياب الشورى والدراسة من أهل الخبرة عامل هام فى ضياع مصالح أى بلد من البلدان. هكذا كان الأمر بالنسبة لعقد حفر قناة السويس الذى حصل عليه الفرنسيون بعد ثلاثة شهور من تولى سعيد باشا حكم مصر.

* * *

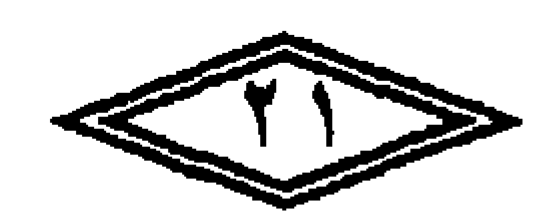


3

اشتهر سعيد باشا بميله إلى الجيش بحكم نشأته العسكرية فى البحرية، وقربه من بطل مصر إبراهيم باشا ومعايشته لذلك البطل وتشبعه بروح حبّه لجنده المصريين. كانت أول أعمال سعيد باشا، اهتمامه بجيش مصر الذى اضمحل فى عهد عباس باشا، فقرر جعل الخدمة العسكرية إجبارية لمدة قصيرة وتعميمها على جميع الشبان على اختلاف طبقاتهم. وقام بالعناية بترقية حالة الجنود فى الغذاء والمسكن والملبس وحسن المعاملة. كان من نتيجة نظام التجنيد فى عهد سعيد باشا، تقدم حالة البلاد الاجتماعية، بما ينقله المجندون عند عودتهم إلى القرى بعد انتهاء مدة خدمتهم، من نظام ونظافة تعودوها فى الجندية.

مال سعيد باشا إلى ترقية الضباط المصريين وإعطائهم حقهم فى التقدم. قال سعيد باشا فى خطبة ألقاها فى مأدبة بقصر النيل حضرها العلماء وأفراد الأسرة الحاكمة، تعكس روحه المصرية:

– إنى نظرت فى أحوال هذا الشعب المصرى من حيث

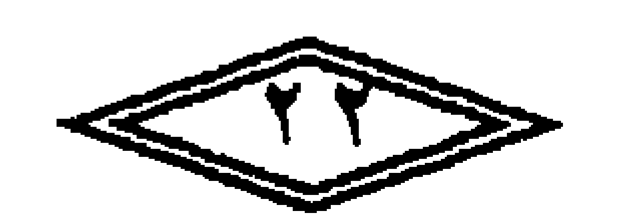


التاريخ فوجدته مظلوما مستعبدا لغيره من أمم الأرض. فقد توالت عليه دول ظالمة له كثيرة كالعرب الرعاة والأشوريين والفرس، حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان وهذا قبل الإسلام.

وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب والترك والأكراد والشركس، وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن. وحيث أنى أعتبر نفسى مصريا فوجب أن أربى أبناء هذا الشعب، وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغنى بنفسه عن الأجانب.

على الرغم من نشأته البحرية، فإن سعيد باشا اضطر إلى إهمال البحرية الحربية المصرة، بعد أن استطاعت إنجلترا إقناع السلطان العثمانى بإصدار أوامر إلى والى مصر بعدم بناء أسطول حربى مصرى. تحول سعيد باشا باهتمامه البحرى إلى إنشاء شركتين مصريتين للملاحة، إحداهما ملاحة نيلية، والثانية ملاحة بحرية واستطاع بذلك إعادة الحياة إلى الترسانة البحرية لبناء السفن اللازمة للشركتين، كما قام بإصلاح ميناء السويس.

رغم ميول سعيد باشا الفرنسية، إلا أنه لم يلغى استعانته بالإنجليز فى استكمال بناء الخط الحديدى الذى يربط الاسكندرية بالقاهرة، والذى وصل فى عهد عباس باشا إلى



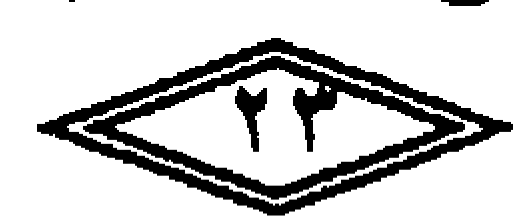
كفر الزيات، فأتم سعيد باشا بناء الخط الحديدى حتى القاهرة، وأمر بإنشاء خط حديدى ثان يربط القاهرة بالسويس. وقامت الشركات الإنجليزية فى عهده بإنشاء خطوط للتلغراف موازية للخط الحديدى.

على مدى الفترة من نوفمبر ١٨٥٤ وحتى نهاية عام ١٨٥٥، كان فردينان دى ليسبس يسعى فى أوروبا، لإقناع المستثمرين بالإسهام فى رأس مال الشركة الجديدة التى يحمل فى يده عقد تأسيسها لحفر قناة السويس، يقنعهم بمدى الفائدة المادية التى ستعود عليهم بشراء أسهم تلك الشركة.

وجاء يوم ٥ يناير عام ١٨٥٦، عندما وقع سعيد باشا مع فردينان دى ليسبس عقد الامتياز الثانى. وفى ذلك العقد، تنازلت الحكومة المصرية للشركة عن الأراضى المطلوبة للمشروع بالمجان، ومنحها أراضى شاسعة على الضفتين أيضا لاستخدامها بالمجان، وأعطى عقد الامتياز للشركة حق تحديد رسوم عبور السفن، وتقديم أربعة أخماس العمال، فى حدود عشرين ألف عامل.

إلى الشركة للقيام بأعمال الحفر، على أن يكون نصيب مصر فى الأرباح ١٥ % فقط من دخلها.

استطاع دى ليسبس بمعاونة امبراطور فرنسا وإصرار سعيد باشا، أن يقاوم النفوذ الإنجليزى المعارض لهذا المشروع. فقد اشترط سعيد باشا لصحة الامتياز أن يصدق السلطان العثمانى عليه ولو أنه كان مصمما على تنفيذه، إلا



أنه احتفظ للسلطان بالمظهر الشكلى وحسب. وتوجه دى ليسبس إلى الأستانة للحصول على موافقة السلطان فلقى هناك مقاومة إنجليزية شديدة لعرقلة المشروع خوفا من امتداد النفوذ الفرنسى مرة أخرى إلى مصر، فقام سعيد باشا بدفع مائة الف جنيه من خزانة الحكومة المصرية لدى ليسبس، لكى يبدأ فى المشروع.

لم يتمكن دى ليسبس من طرح أسهم الشركة للاكتتاب العالمى إلا فى ٥ نوفمبر ١٨٥٨، فلقيت إقبالا عظيما، فتــألفت الشركة فى ديسمبر ١٨٥٨ واكتتب سعيد باشا فى الشركة بما يقرب من نصف مجموع الأسهم فيها.

بدأ الحفر فى القناة يوم ٢٥ إبريل ١٨٥٩ فهاجت انجلترا، وطلبت من السلطان العثمانى إصدار أمره بوقف العمل فى المشروع، وساعد على ذلك نشوب الحرب بين فرنسا والنمسا فى مايو من نفس العام، فمالت فرنسا إلى خطب ود الإنجليز وتراخت فى تأييد المشروع، وأصدر السلطان أمرا إلى سعيد باشا بوقف أعمال الحفر فى برزخ السويس.

عندما وقع الصلح بين فرنسا والنمسا، وعادت لإمبراطور فرنسا نابليون الثالث هيبته ونفوذه، بذل جهوده لدى السلطان العثمانى بحمله على إلغاء أمره وعاد إلى تأييد المشروع، فاطمأن سعيد باشا إلى تأييد فرنسا له، فقدم العمال المصريين إلى الشركة لمعاودة الأعمال الحفر فى القناة.



كان سعيد باشا طيب القلب، كريما وشجاعا، يميل إلى الخير والتسامح، يحب العدل وينفر من الظلم. انعكست تلك الأخلاق الكريمة على فكره فى الحكم، فأصدر فى الخامس من أغسطس عام ١٨٥ ما عرف باللائحة السعيدية، التى خولت للفلاحين حق ملكية الأرض الزراعية، ثم ألغى أيضا نظام احتكار الحاصلات الزراعية. وخفف عن الأهالى عبء الضرائب، فأعفى الناس من الضرائب المتأخرة عليهم جملة واحدة.

أمهل سعيد باشا الفلاحين، عند دفع ضرائبهم نقدا، حتى يتمكنوا من بيع محاصيلهم، بعد أن ألغى الاحتكار ونظام دفع الضرائب من المحاصيل. واتبع ذلك بإصدار اللائحة الخاصة بالمعاشات للموظفين المتقاعدين، وهى الأساس الذى بنى عليه نظام المعاشات المتبع فى مصر لموظفى الحكومة.

وانطلاقا من اهتمام سعيد باشا بالفلاحين وأحوالهم، قام بتطهير ترعة المحمودية التى شقها محمد على باشا وإزالة الرمال والأتربة التى غطتها خلال عهد عباس باشا، فجعلها صالحة للملاحة مرة أخرى وقام بإنشاء طريق على جانبيها بعرض عشرة أمتار.

وعلى الجانب الآخر من شخصية سعيد باشا، أنه لم يهتم بالتعليم الذى تقهقر فى مصر خلال عهد عباس باشا، فاستمر سعيد فى إغلاق المزيد من المعاهد المصرية العليا،



وعلى العكس من ذلك، ازدادت حركة إنشاء المدارس الأجنبية فى مصر وقيام سعيد باشا بمنحها الأراضى والأموال لتبدأ أعمالها فى مصر.

وعلى الصعيد الإدارى الداخلى فى مصر، فقد أعاد سعيد باشا تأليف المجلس الخصوصى للنظر فى المسائل العامة للحكومة وسن اللوائح والقوانين وترتيب النظم العمومية وتعيين رؤساء المصالح الكبرى واستدعى ذلك إنشاء أربع وزارت: الداخلية، الخارجية، المالية والحربية.

وعلى النقيض من عباس باشا الذى أهمل إقليم السودان،اهتم سعيد باشا بالإقليم وقام بزيارته عام ١٨٥٧، واستمع إلى شكوى الناس من ظـــلم الأتـــراك وفداحة الأموال التى يأخذونها منهم، فقرر سعيد باشا إعفاء الأهالى من الضرائب المتأخرة عليهم وتخفيضها، وقام بعزل الموظفين الأتراك من مناصبهم واستبدلهم بآخرين سودانيين، وألغى نظام السخرة فى السودان، وأنشأ محطات للبريد ونقله، من مكان إلى آخر لربط أقاليم السودان بعضها ببعض. قام سعيد باشا بتقسيم إقليم السودان إلى خمس مديريات مستقلة فى إدارتها، وتبعية المديريات إلى وزارة الداخلية فى مصر.

عندما تولى سعيد باشا الحكم بعد عباس باشا، كان الجيش المصرى فى شبه جزيرة القرم لا يزال يحارب مع العثمانيين ضد الروس، فقام سعيد باشا بإرسال تعزيزات



عسكرية إلى الجيش المصرى، وعين على باشا مبارك كأركانحرب للواء أحمد باشا المنكلى قائد الجيش فى القرم. وقد أشاد كل الكتاب العسكريين فى العالم، بأداء الجنود المصريين فى تلك الحرب وسط ظروف جوية ومعيشية غاية فى الصعوبة.

وساعد سعيد باشا صديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا فى حربها بالمكسيك، فعندما قامت الثورة فى المكسيك عام ١٨٦١، أيد نابليون الثالث الثورة وأرسل جيشا فرنسيا إلى المكسيك للسيطرة عليها، لكن جيشه لقى هزائم متتالية، فاستغاث بسعيد باشا لكى يمده بجيش مصرى. بعث سعيد باشا بكتيبة مصرية قوامها ١٢٠٠ جندى قال عنهم القائد الفرنسى:

– إنهم ليسوا جنود، بل هم أسود.

ظلت الكتيبة المصرية تحارب فى المكسيك لأكثر من أربع سنوات، قتل فيها نحو ثلثى ذلك الجيش الذى لاناقة له ولا جمل فى تلك الحرب.

ازداد التوتر بين السلطان العثمانى وسعيد باشا بسبب عقد قناة السويس، وقيام الإنجليز بالوقيعة بينهما، فاستدعى السلطان سعيد باشا للذهاب إليه فى الأستانة. خشى سعيد باشا من السفر إلى السلطان العثمانى فى بلاده، وهو يعلم مدى الغدر الذى يحيط بالعثمانيين، فقام بزيارة الحجاز،



واصطحب معه قوة عسكرية، وكأنه يريد أن يثبت للسلطان أنه يحافظ على أملاكه فى الحجاز. قام سعيد باشا بالتوجه إلى المدينة المنورة لزيارة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهكذا استطاع سعيد باشا الهروب من تلبية أمر السلطان باستدعائه إلى الأستانة.

مع استئناف حفر قناة السويس، وتوافد الأجانب على مصر والإقامة بها، تحولت محاكم التجارة التى كانت تفصل فى النزاعات بين المصريين والأجانب إلى ما سمى (قومسيون مصر) عام ١٨٦١، ويتألف ذلك القومسيون من رئيس مصرى، وعضوين مصريين، وعضو أوروبى، وآخر يونانى، وثالث يهودى، ورابع أرمنى. وكان اختصاص القومسيون هو النظر فى القضايا التى ترفع من الأجانب على الرعايا المصريين، وللقنصليات الأجنبية أن ترسل مندوبا عنها لحضور الجلسات.

كان هذا القومسيون، هو أول المحاكم المختلطة، والذى تحول إلى نظام قضائى أجنبى يحكم فى أرض مصر، وهو القضاء الذى أضرّ بالمصريين أيما ضرر.

وقد اقتضى اندفاع سعيد باشا فى تنفيذ مشروع قناة السويس، أن يلجأ إلى الأستدانة من البنوك الأجنبية لمواجهة نفقات المشروع والحكومة، فبلغ الدين العام لمصر فى نهاية عهد سعيد باشا ١١,١٦٠,٠٠٠ جنيه، وهو رقم كبير جدا بالقياس إلى ميزانية مصر فى ذلك الوقت.



مات سعيد باشا فى يناير عام ١٩٦٣ وعمره لم يتجاوز اثنين وأربعين عاما، فتولى اسماعيل باشا بن إبراهيم باشا حكم مصر.

* * *



4

تولى إسماعيل باشا الحكم فى يناير ١٨٦٣، ووجد أمامه مسألة قناة السويس التى وصل الحفر فيها إلى بحيرة التمساح. استقر عزمه على استكمال المشروع، وهاله أن يرى فداحة المزايا التى حصلت عليها الشركة من حكومة مصر وشعبها. كانت أولى أعمال إسماعيل باشا إصدار قرار بإلغاء تعهد الحكومة بتقديم العمال، وجعل العدد مقصورا على ستة آلاف عامل فقط بدلا من عشرين ألف على أن تزاد أجور كل منهم إلى فرنكين يوميا بدلا من فرنك واحد.

وأتبع إسماعيل باشا ذلك بقوله:

– أريد أن تكون القناة لمصر، لا أن تكون مصر للقناة فأصدر، قرارا ثانيا بإلغاء ملكية شركة قناة السويس لترعة المياه العذبة وإعادتها إلى الحكومة المصرية. ثم قام بإلغاء ملكية الشركة الأراضى المملوكةلأفراد ومنعها من نزع ملكية الأطيان المملوكة للأفراد على جانبى المشروع.

رفضت شركة قناة السويس تنفيذ قرارات إسماعيل باشا، وبدأت سلسلة من المفاوضات التى لم تسفر عن حل يقبله

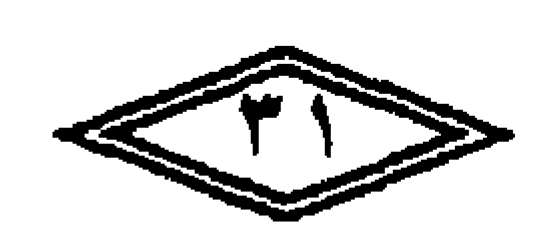


الطرفان، فاتفقا على تحكيم نابليون الثالث إمبراطور فرنسا فى النزاع الناشب بين الشركة وبين مصر. تصور إسماعيل باشا أن صديقه نابليون سوف يقف إلى جانبه، ولكن خاب ظنه عندما أصدر إمبراطور فرنسا حكمه الظالم فى يوليه ١٨٦٤ بقيام مصر بدفع تعويض مقداره ٣,٣٦٠,٠٠٠جنيه للشركة مقابل تنفيذ قرارات إسماعيل باشا.

أسقط فى يد مصر، واضطرت إلى دفع المبلغ المقارب لنصف راس المال الشركة، تنفيذا للحكم. وقد فتح هذا الحكم الباب أمام قيام الحكومة المصرية بالاستدانة من البنوك الفرنسية لتسديد المبلغ.

رأى إسماعيل باشا، ان علاقاته بالسلطان العثمانى لابد وأن تصبح على أعلى درجة من الثقة والتعاون، وهو يرى أفراد الأسرة العلوية وخاصة أخوه وعمه، يتنازعون على امتلاك الثروات والسعى إلى تولى الحكم.

قرر إسماعيل باشا أن يستصدر من السلطان عبد العزيز فرمانا بتعديل النظام الوراثى فى الأسرة العلوية ليصبح العرش من حق أكبر أبنائه هو وليس لأكبر سلالة محمد على باشا. قام بعد شهر من توليه الحكم بزيارة الأستانة لتقديم فروض الولاء للسلطان العثمانى. بعثر هداياه ورشوته على ساكنى القصور فى البوسفور من حاشية السلطان. ودعا السلطان عبد العزيز إلى زيارة مصر.



لبّى السلطان عبد العزيز الدعوة، وزار مصر فى إبريل ١٨٦٣، وهو أول سلطان عثمانى يزورها منذ أن احتلها سليم عام ١٥١٧ وضم المحروسة إلى الأملاك العثمانية. أكرمه اسماعيل باشا وأغرقه وحاشيته بالهدايا والرشاوى، فجعل زيارة السلطان لمصر ذكرى لا تنسى.

واستمر إسماعيل باشا على سياسته من إرضاء السلطان العثمانى وحاشيته بكل الوسائل حتى أصدر السلطان فرمانا عام ١٨٦٧ بتغيير نظام الوراثة فى مصر وجعلها بين أبناء اسماعيل باشا، مما دعا الكثير من أفراد الأسرة العلوية إلى السفر من مصر والاستقرار فى الأستانة أو أوروبا.

وأصدر السلطان فرمانا ثانيا بمنح اسماعيل باشا لقب "خديوى" وهى مرتبة تقرب من مراتب الملوك والسلاطين. كما أقر ذلك الفرمان حق الحكومة المصرية واستقلالها فى إدارة شئونها الداخلية والمالية وعقد المعاهدات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركاب فى البلاد، إلى جانب شئون الإشراف والضبط للجاليات الأجنبية فى مصر.

قامت ثورة فى إقليم الهرسك ضد السلطان فطلب من إسماعيل باشا إرسال جيش مصرى لإخمادها. بعثت مصر بجيش مكون من خمسة آلاف جندى قضت عليها ثم أبقاه السلطان فى مدينة "مناستر". وقامت ثورة عارمة فى جزيرة كريت عام ١٨٦٦ فطلب السلطان عبد العزيز من



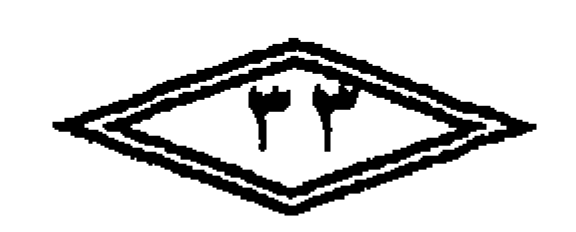
إسماعيل باشا إخمادها، فبعث خديوى مصر بأسطول إلى الأستانة ونقل جيش مصر إلى كريت حيث قضى على الثورة هناك.

عندما أصدر السلطان فرمان جعل الوراثة لأبناء اسماعيل باشا، ومنحه لقب خديوى، طلب اسماعيل باشا من السلطان إعطائه الحق فى تعيين سفراء لمصر.

فى الدول الأخرى، فأحس السلطان بأن اسماعيل باشا يعمل على استقلال بمصر فرفض مطلبه مما دعا اسماعيل باشا إلى أصدار تعليماته إلى قائد الجيش المصرى فى كريت باستمالة أعيانها ليطلبوا الانضمام إلى مصر. علم السلطان بذلك فتوترت العلاقات المصرية العثمانية.

وزاد فى توتر تلك العلاقات، اشتراك مصر فى معرض باريس بجناح مستقل يظهر عظمة مصر وتقدمها، وظهور إسماعيل باشا كملك لمصر مستقل، عندما دعا ملوك ورؤساء حكومات أوروبا إلى حضور حفل افتتاح قناة السويس فى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ وكان إسماعيل باشا قد فاتح الملوك فى الاحتفال برغبته فى إعلان استقلال مصر، لكنهم لم يوافقوه على ذلك الرأى.

أحس خديوى مصر بالخطر تجاه نوايا السلطان العثمانى ضده، فقام بإعادة تسليح جيش مصر وإصلاح القلاع وتزويدها بمدافع جديدة استوردها من انجلترا، تحسبا لأى غزو عثمانى لمصر.



وجاء رد السلطان العثمانى فوريا بعد انتهاء احتفالات افتتاح القناة، عندما أصدر فرمانا فى ١٨٦٩/١١/٢٩، بتقييد حقوق خديوى مصر فى عدم حصوله على قروض دون إذن السلطان. ولم يفقد اسماعيل باشا صبره، بل سعى مجددا لدى السلطان وحاشيته بالهدايا والرشاوى حتى حصل عام ١٨٧٢ على فرمان ينسخ ما سبق، فقام بزيارة السلطان فى الأستانة واسترضائه حتى تمكن من الحصول على فرمان جامع فى العام التالى، يعطى إسماعيل باشا حقوقا مطلقة فى الحكم أهمها: توارث العرش فى أكبر أنجال الخديوى، تحديد أملاك الخديوية المصرية بمصر والسودان وسواكن ومصوع وملحقاتهما، وحق الحكومة فى سن القوانين، وحق عقد الاتفاقات الجمركية والمعاهدات التجارية، وحق الاقتراض من الخارج، وزيادة عدد الجيش إلى أى عدد وحق بناء السفن الحربية عدا المدرعات. وكان هذا الفرمان الذى أبلغ إلى الدول الأوروبية بمثابة إقرار حقوق مصر الكاملة فى الاستقلال العام فيما عدا الجزية السنوية، وعدم عقد معاهدات سياسية وحق التمثيل الخارجى وعدم صنع المدرعات الحربية. وقد قدرت الهدايا والرشاوى التى قدمها إسماعيل باشا للسلطان وحاشيته بمبلغ ١٢ مليون جنيه، وهو مبلغ كبير جدا بمقاييس ذلك الزمن.

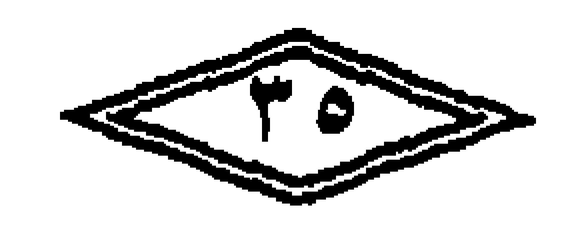
كانت ميول اسماعيل باشا الباريسية، سببا فى فتح أبواب مصر لتدفق الأوروبيين من كل جنسية على مصر. وقد وصفهم المؤرخون الأوروبيون بأنهم كانوا من أحط

الطبقات فى أوروبا همهم هو تحقيق الثروات. فقد تكالب على مصر خلال عهد إسماعيل باشا إلى جانب الفرنسيين، الانجليز والأمريكيين والروس والإيطاليين واليونانيين والمالطيين والنمساوين وغيرهم، الباحثين عن المغامرات والثروات. ووجد بعضهم الفرصة للوصول إلى بلاط الخديوى والتسلل إليه، إلى الحد الذى تولى فيه أحد الضباط الأمريكيين قيادة جيش مصرى أثناء الحرب فى الحبشة.

وكان إسماعيل باشا يُعد الإمبراطور نابليون الثالث امبراطور فرنسا، صديقا مخلصا له ولمصر. لم يكن على دراية أن نابليون الثالث هو صنيعة آل روتشيلد اليهود فى فرنسا، وأنه لا يمت بصلة إلى بونابرت، إنما كان آل روتشيلد يفرضون زعم نسبه إلى بونابرت.

ولقد تجاهل المؤرخون أصله الحقيقى واختلفوا فى بيان حقيقة نشأته ومولده، لكنهم اتفقوا على صلته بآل روتشيلد اليهود المتحكمين فى الاقتصاد الفرنسى والثورة الفرنسية التى عصفت من قبل بلويس ملك فرنسا.

وعلى الرغم من حكم نابليون الثالث الظالم على مصر عند تحكيمه فى الخلاف حول القناة، فإن إسماعيل باشا لم يفطن إلى الهدف اليهودى من وراء تكبيل مصر بالديون، بعد فرض تلك التعويضات الجائرة، وظل على صداقته لنابليون الثالث حتى هزمت ألمانيا فرنسا فى الحرب السبعينية، فابتعدت فرنسا عن مصر بعد الهزيمة، ومهدت



تلك الهزيمة لكى تكون إنجلترا هى صاحبة الصوت الأعلى فى المسألة المصرية.

فمنذ افتتاح قناة السويس للملاحة، عمدت إنجلترا إلى التركيز على مصر والسودان كإقليم يجب وضعه تحت سيطرتها. وفى نفس الوقت الذى أيقن فيه إسماعيل باشا أفول نجم فرنسا، اتجه بصداقته إلى الإنجليز، الذين تمكنوا من إقناع خديوى مصر بتعيين الرحالة الإنجليزى صمويل بيكر، حاكما لمديرية خط الاستواء. وعندما استدعت انجلترا بيكر، تم تعيين الكولونيل جوردون مكانه.

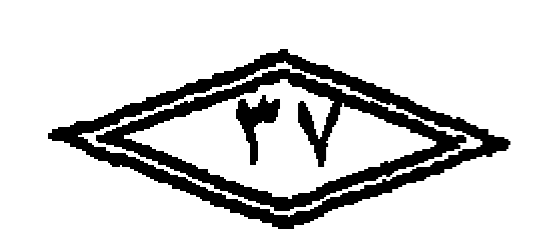
وأقنعت انجلترا إسماعيل باشا بإسناد مشروع توسيع ميناء الإسكندرية إليها، فمنحها الخديوى ذلك الامتياز. ومع ازدياد ديون مصر وقروضها من بنوك انجلترا وفرنسا اليهودية، اضطر الخديوى إلى بيع حصة مصر فى إيرادات القناة، فاشترتها إنـجلترا، ثم باعت مصر أسهمها فى القناة عام ١٨٧٥، وقامت إنجلترا بشرائها. أصبحت إنجلترا فى عهد رئيس وزرائها دزرائيلى، اليهودى صنيعة آل روتشيلد، هى المالكة لأكبر الأنصبة فى قناة السويس المصرية.

يمكن القول أن النفوذ الانجليزى فى بلاط خديوى مصر، قد استشرى منذ عام ١٨٧٠، تخطيطا منها للسنوات القادمة التى رسمت فيها خططها لاحتلال مصر والسودان، وهو الأمل الذى راودها منذ غزو بونابرت لمصر.

أوعزت إنجلترا إلى خديوى مصر أن يعين جوردون (غوردون باشا) حاكما عاما لإقليم السودان فى عام ١٨٧٧، وهو أول أجنبى يتولى مثل هذا المنصب الهام. ولابد أن إسماعيل باشا وقع ضحية ضغوط رهيبة من جانب إنجلترا وبنوكها، لكى يقبل هذا المبدأ الذى رفضه من قبل، استمرارا لنهج أبيه إبراهيم باشا وجده محمد على باشا.

هكذا تمكن الإنجليز، بتعيين غوردون باشا حاكما عاما فى السودان، أن يطبقوا الخطة الإنجليزية فى فصل إقليم السودان عن إقليم مصر إداريا فيما بعد.

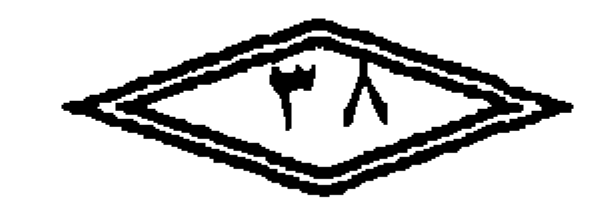
***



5

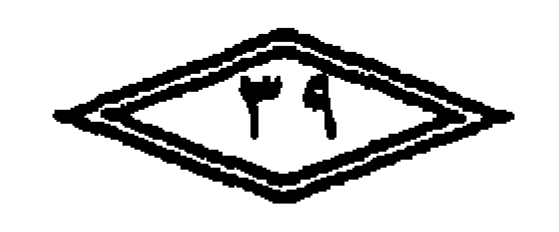
وجه إسماعيل باشا عنايته إلى إتمام فتح الإقليم السودانى والوصول إلى حدود مصر الطبيعية، مستكملا بذلك العمل الذى بدأه جده محمد على باشا. أصدر أوامره إلى الجنود الموجودين بالسودان عام ١٨٦٥، باحتلال " فاشودة ". واتخذت الحكومة بها نقطة حربية دائمة لمنع عبور الرقيق حتى مصر، وسد الطريق أمام تجارة النخاسة القادمة بطريق النيل من أقاليم خط الاستواء وبحر الغزال.كانت مدينة "فاشودة" ذات أهمية كبرى بوقوعها على ملتقى الطرق المختلفة الواصلة من الخرطوم والحبشة إلى جنوب السودان.

استطاع إسماعيل باشا ضم "سواكن" و"مصوّع" إلى أملاك مصر نهائيا، بعد أن استصدر فرمانا من السلطان بإحالة المنطقتين إلى ملحقات مصر عام ١٨٦٥، وكان محمد على باشا قد استأجرهما من السلطان العثمانى مقابل إيجار سنوى. وقد أدخل إسماعيل باشا العمران إلى المدينتين بتشييد قلعة ومبانى للمحافظة والجمارك ومساكن للموظفين، كما أنشأ ترعة صغيرة لتوصيل المياه العذبة إلى سواكن.



جاء الأمير إدوارد، ولىّ عهد انجلترا إلى مصر عام ١٨٦٩ لحضور حفل افتتاح قناة السويس، وبصحبته الرحّالة الانجليزى صمويل بيكر. طلب الأمير الإنجليزى من إسماعيل باشا أن يعهد للرحّالة الإنجليزى بمطاردة تجارة الرقيق فى السودان نيابة عن الحكومة المصرية، فقبل إسماعيل باشا الطلب. أصدر خديوى مصر مرسوما إلى سير صمويل بيكر عهد إليه فيه ببسط النفوذ المصرى فى المناطق جنوبى "غندكرو" وتنظيمها ونشر التجارة بها ومطاردة الاتجار بالرقيق وإنشاء المحطات الحربية فيها، وأعطاه قوة حربية مصرية بمعداتها، وعيّنه حاكما عاما على مديرية خط الإستواء لمدة أربع سنوات.

بلغ "بيكر" غندكرو، فرفع عليها العلم المصرى وأعلن ضم هذه البلاد رسميا إلى مصر، وجعلها عاصمة لمديرية خط الإستواء. واستأنف الجيش المصرى سيره حتى فتح مملكة "أونيورو"، وقدم ملك أوغندا ولاءه لمصر. انتهت خدمة السير صمويل بيكر عام ١٨٧٦، فقامت الحكومة الإنجليزية، وهى ترى مدى تقرّب إسماعيل باشا إليها، بطلب تعيين الكولونيل "جوردون" مديرا لخط الاستواء، وأقنعت الخديوى بأن يجعل له من السلطة أكثر مما كان لصمويل بيكر. عيّنه إسماعيل باشا حاكما لإقليم خط الاستواء على أن يكون مستقلا فى عمله، فأصبحت الأقاليم من جنوبى"فاشودة" إلى خط الاستواء تحت سلطة "جوردون" وأنعم عليه برتبة الفريق فأصبح اسمه (غوردون باشا).



هكذا استطاعت إنجلترا أن تضع أصابعها فى النصف الجنوبى من إقليم السودان، يصول فيه غوردون باشا ويجول كيف يشاء، يبعد عن الحاميات المصرية كل ضابط مصرى يلمح فيه نبوغا أو وطنية زائدة قد تضرّ بالمصالح الإنجليزية التى يخطط لها غوردون.

وقد أرسل شريف باشا وزير خارجية مصر فى عهد إسماعيل باشا، مذكرة إلى الدول الأوروبية يعلن فيها ضم الأقاليم التى تم فتحها فى منطقة البحيرات إلى حكم مصر.

بسطت مصر حمايتها على مملكة أوغندا عام ١٨٧٤، على يد الكولونيل "شايى لونج"، وهو ضابط أمريكى دخل فى خدمة الجيش المصرى عام ١٨٧٠ وعينه غوردون باشا أركان حرب له. واستطاع ذلك الأمريكى الذى أخلص فى خدمة مصر، أن يجعل ملك أوغندا يقسم بيمين الطاعة لمصر وللخديوى.

واستطاع الكولونيل "لونج" أن يكتشف بحيرة (إبراهيم)، لكن غوردون غيّر اسمها إلى (كيوجا) حتى يمحو أى إسم مصرى فى هذه المنطقة. وتمكن غوردون باشا أن يبعد " لونج " عن السودان عندما تيقن من إخلاصه لمصر ومعارضته للخطط الإنجليزية للسيطرة على الإقليم السودانى.

جاء عام ١٨٧٦، وانتهت خدمة غوردون باشا فعاد إلى إنجلترا، واستخلف فى مديرية خط الإستواء معاونة الكولونيل الأمريكى "بروت" الذى التحق بخدمة الجيش

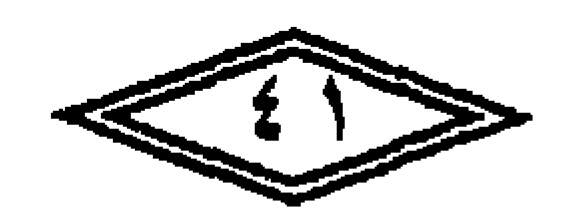


المصرى وخدم تحت لواء غوردون، وكان متفهما للسياسة الإنجليزية متعاونا معها تماما على عكس" لونج " الذى كان يعارضها، مبديا إخلاصه لمصر.

ولم يمض على وجود غوردون باشا فى إنجلترا سوى ثلاث سنوات، حتى استطاعت لندن أن تقنع إسماعيل باشا بتعيين غوردون باشا حكمدارا عاما لعموم السودان كبديل للحاكم العام المصرى، وصارت أقاليم السودان كلها تحت السلطة المطلقة لذلك الرجل الذى مهد للإنجليز الإستيلاء على السودان وأوغندا وما حولهما من أقاليم أفريقية أخرى.

كان أول قرارات غوردون باشا فى منصبه الجـديد هو فصل إبراهيم بك فوزى من منصبه كمدير لخط الاستواء، وعين بدلا منه طبيبا ألمانيا يدعى "إدوارد شينتزر"، وما لبث ذلك الألمانى صديق غوردون غير وقت يسير، حتى أعلن إسلامه وتسمى باسم "أمين" وأخلص لمصر وهو يحكم مديرية خط الإستواء باسم الحكومة الخديوية،حتى أجبره الإنجليز إلى إخلاء المنطقة.

تحمس إسماعيل باشا لقضية منع الاتجار بالرقيق، وكان محمد على باشا قد إلغاها، لكنها ظلت تمارس دون منع فعلى. وكان احتلال " فاشوده " خطوة هامة فى السيطرة على قوافل الرقيق القادمة من السودان إلى مصر، وتحرير العبيد الذين يتم الاستيلاء عليهم من تلك القوافل. وقد آثار



ذلك العمل ثائرة تجار العبيد من السودانيين الذين حُرموا أرباح تلك التجارة الرائجة فى ذلك العصر. كان تمرد تجار العبيد ومنا وئتهم للحكم المصرى آثاره فى تتبع أولئك التجار وأتباعهم والدخول معهم فى معارك وحروب كلفت مصر رجالا قتلوا، وأموالا طائلة.

ويجب أن يذكر هنا، أن الاهتمام بإقليم السودان كان كالعملة ذات الوجهين.صوّر أحد وجهـيها لإسماعيل باشا على أنها مدّ لنفوذ مصر وسمعتها الدولية وتثبيتا لحقها فى الأقاليم التى فتحها جده محمد على باشا، وتم استكمال فتحها والسيطرة عليها فعليا فى عهده.

وعلى الوجه الثانى من العملة، كان تخطيطا إنجليزيا متقنا للاستيلاء على هذه الأقاليم، وزيادة التورط المصرى فى الديون بـما تتحمله من أموال طائلة للإنفاق على فتح الأقاليم واستكشاف أراضيها، ليتم تقديمها لقمة سائغة للإنجليز.

كان إقليم " دارفور"، ضمن أملاك مصر إلا أنه بقى مستقلا بالفعل عن الدولة المصرية. وأصدر إسماعيل باشا تعليماته إلى حكمدار السودان، فقام بفتح الإقليم وضم "دارفور" إلى الإدارة المصرية، وجاء عام ١٨٧٥، فى السنة التالية لفتح دارفور، فاتفق إسماعيل باشا مع السلطان العثمانى على فتح "زيلع" و"بربرة" من مدن الصومال، على خليج عدن ومدخل البحر الأحمر. وبالفعل استطاع جيش



مصر أن يستولى دون قتال يذكر على تلك المدن وما حولها من قرى، ضمها إلى المدينتين. وقامت مصر بإنشاء مسجد وصهريج لخزن المياه العذبة بها ومنشآت للجمارك والثكنات العسكرية ومكاتب للبريد، ومد خط أنابيب للمياه.

كانت الخطوة التالية فى استكمال الامتداد المصرى فى شرق القارة الأفريقية، هى فتح إمارة "هرر" الإسلامية فى ١١ أكتوبر عام ١٨٧٥ ورفع العلم المصرى على أبوابها وفوق قصر أميرها، وبذلك ضمت تلك السلطنة إلى أملاك مصر. ظلت إمارة "هرر" تحت الحكم المصرى حتى أجبر الإنجليز المصريين على إخلائها بعد عشر سنوات. كان المصريون قد استقروا بها وأدخلوا زراعة العديد من المحاصيل الجديدة كالفاكهة وقصب السكر والقمح، وبعد أن أخلى جميع المصريين إقليم " هرر"، هجمت الحبشة عليه واحتلته وضمته إلى أراضيها، وهو ما يعرف الآن باسم دولة " إرتيريا ".

رأى إسماعيل باشا مع اطمئنان أهالى الصومال إلى العيش فى ظل الإدارة المصرية بالمدن التى تم ضمها إلى مصر، أن يستكمل فتح إقليم الصومال كله،

وإنشاء طريق يربط المحيط الهندى، بمنطقة البحيرات الإستوائية وأهمها بحيرة فيكتوريا. أعدت مصر حملة عسكرية، وتولى الضابط الأمريكى "لونج " مهمة استكشاف الطريق من الصومال حتى بحيرة فيكتوريا عن طريق نهر " جوبا ".



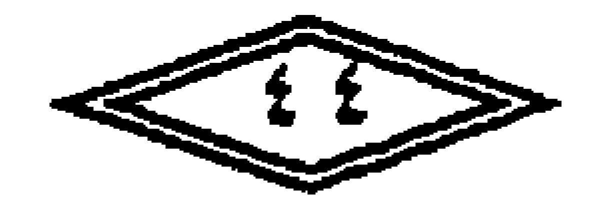
قام إسماعيل باشا باختيار الأميرال " ماكيلوب باشا " مدير الموانئ والمنارات المصرية، قائدا لتلك الحملة، على أن يعاونه " لونج بك " الذى ترقى إلى رتبة الأميرالاى فى الجيش المصرى، ويتولى قيادة الحملة البرية لاستكشاف الطريق.

وأصدر خديوى مصر أوامره إلى غوردون باشا حاكم خط الإستواء، الذى يحكم بإسم مصر، أن يلتقى بالحملة البرية عند منصب نهر جوبا لمساعدة الحملة فى مهمتها باستكشاف الطريق.

أقلعت العمارة المصرية من السويس، تقل الجنود المصريين فى فبراير ١٨٧٥ وأبحرت فى البحر الأحمر ثم بوغاز باب المندب فخليج عدن ورمت مراسيها فى ميناء " بربرة " ثم إلى رأس " حافون " على المحيط الهندى. دعا المصريون رؤساء القبائل إلى الدخول فى. طاعة الحكومة المصرية،فلبوا الدعوة طائعين.

واستأنفت الحملة سيرها إلى مدينة "براوه " شرق نهر " الجوبا " ففتحتها سلما، وفتحت الحملة بلدة " قسمايو " الواقعة على مصب النهر.

سارت الحملة بالقوارب فى النهر لمسافة نحو ١٥٠ ميلا حتى تعذرت الملاحة، فعادت إلى حيث بدأت، وسار الأميرالاى " لونج بك " برا بالجنود، لكنه اضطر لإلغاء الرحلة بناء على تعليمات الخديوى بعد أن تدخلت إنجلترا



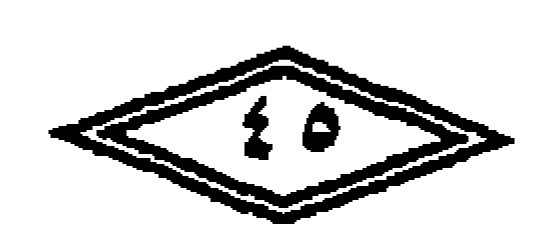
لدى إسماعيل باشا لإلغائها. كان السبب الرئيسى فى ارتداد الحملة، هوعدم قيام غوردون باشا بلقائها كالتعليمات الصادرة إليه من إسماعيل باشا.

رأى الإنجليز أن إتمام تلك الحملة سيجعل من ممتلكات مصر ما يصل من المحيط الهندى وخليج عدن والبحر الأحمر وحتى أوغندا، إمبراطورية عظمى، وهو مالا يتفق والتخطيط الإنجليزى الذى أعدوه لالتهام تلك الأقاليم، بل أنهم عملوا على تفتيت التواجد المصرى فى تلك الأراضى.

بلغ النفوذ الانجليزى فى مصر خلال عهد إسماعيل باشا مداه. وقد اتضح ذلك النفوذ، من خلال إملاء رغباتها على خديوى مصر فى تعيين ضباطها الإنجليز لترأس الجيش المصرى وخاصة فى السودان لخدمة أغراضها طويلة الأمد التى تخطط لها.

كانت الديون التى تحملتها الخزانة المصرية، أهم عوامل فقدان الخديوى لحرية التصرف والنظر إلى مصلحة بلدة. كان عليه الطاعة فيما "ينصح" به الإنجليز من قرارات، هى فى واقع الأمر تعليمات تخدم تخطيطهم. وكان إعجاب الخديوى بالأوروبيين، ورغبته فى جعل مصر قطعة من أوروبا، سببا ثانيا لأن يأخذ بآرائهم كقضية مسلمة، معتقدا أنها الطريق الأمثل لتقدم مصر.

لم يرث إسماعيل باشا عن جدّه محمد على باشا معارضته لتواجد أى نفوذ أجنبى فى مصر، ولم يستخدم



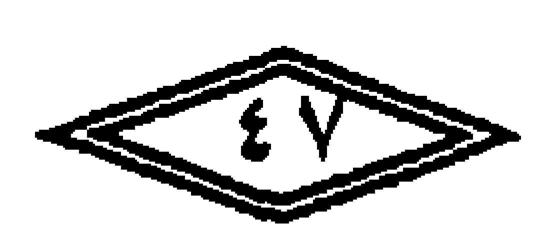
محمد على باشا غير عدد محدد من الفرنسيين المخلصين ذوى الخبرة والمعرفة وتحت إشراف المصريين، ولم يرث عن أبيه إبراهيم باشا شجاعته فى مواجهة أشد المواقف صعوبة ولا إيمانه بالقومية العربية ولا اعتماده إلاّ على المصريين فقط. كانت توجيهات إسماعيل باشا أوروبية صرفة، نتيجة لعيشه بها منذ سن الرابعة عشرة وحتى توليه العرش. لكن ذلك الإعجاب بالأوروبية، لا يعنى أن إسماعيل باشا أهمل أمر بلده، بل أنه عمل كل ما تصور أنه يخدم مصر ويعمل على تقدمها لكى تصبح دولة عصرية مثل الدول الأوروبية الأخرى. وقد اصطدمت آمال إسماعيل باشا فى تقدم مصر وتغييرها، بتخطيط الإنجليز لاحتلال مصر والسودان، وسعى فرنسا لتوطيد نفوذها فى مصر، ثم اتفاقهما فى النهاية.

عندما فشلت الحملة المصرية الرامية لوصل أملاكها على المحيط الهندى بأملاكها فى البحيرات الاستوائية على يد الإنجليز، أرادت إنجلترا حصر النفوذ المصرى بقدر الإمكان فى الصومال، فقامت عام ١٨٧٧، بعقد معاهدة مع مصر تعترف فيها بامتلاك مصر لسواحل بلاد الصومال، وإبقاء " بربرة " و" بولهار " ثغرين حربيين وتحديد رسوم الجمارك بهما، وعلى أن تعامل إنجلترا ورعاياها وسفنها وتجارتها معاملة خاصة، إلى جانب تعيين إنجلترا لقناصل لها فى جميع الثغور والبلاد الكائنة على سواحل الصومال دونا عن الدول الأخرى.



أقرت إنجلترا فى تلك المعاهدة بسلطة مصر على بلاد الصومال، وهى تخطط لما بعد ذلك، فقد استولت على "زيلع " و" بربرة " وملحقاتهما بعد إجبار مصر على إخلاء السودان. واستولت فرنسا على " تاجورة " وملحقاتها، واستولت إيطاليا على " رأس جردفون ".

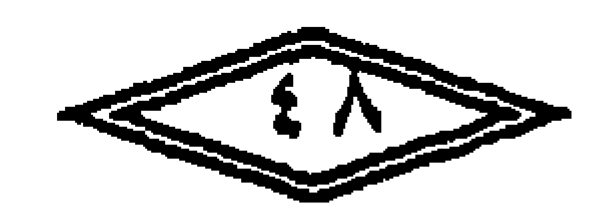
* * *



6

أراد إسماعيل باشا أن يصل ميناء " مصوع " على البحر الأحمر، بمدينة " كسلا " بخط حديدى لربط شرق السودان بالمواصلات. كـــان الخط المقترح يمر بأرض " البوغوس " التى أدعى النجاشى ملك الحبشة أنها من أملاكه، وعارض مصر فى إتمام المشروع، فكان الجفاء بين مصر والحبشه هو المسيطر على علاقات الدولتين، خاصة وأن الحبشه ترى تقدم المصريين فى الصومال والسيطرة على الأقاليم والموانئ المحيطة بالحبشة، وتجعل اتصالها بالمحيط لابد وأن يخضع لرضاء المصريين وموافقتهم.

اعتقل النجاشى بعض التجار الإنجليز فى بلاده عام ١٨٦٧ فقامت الحرب بين إنجلترا والحبشة، وقدم إسماعيل باشا كل المساعدات الحربية إلى الإنجليز فى حملته على الحبشة، فنقل جنودهم على الأسطول المصرى وأمر محافظ مصوع بمعاونة الجيش الانجليزى فى حملته التى انتصر فيها،وقتل النجاشى عام ١٨٦٨. تولى النجاشى "

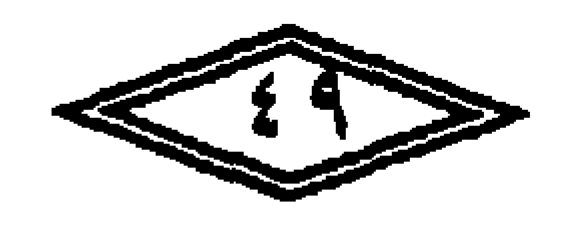


يوحنا " ملك الحبشة، وكان على صلة بالإنجليز، فانسحب الإنجليز من الحبشة، وهم يدركون مدى صعوبة السيطرة الحربية على تلك البلاد، ومن ناحية أخرى فقد ضمنوا تعاون الحبشة معهم بعد تعيين رجلهم " يوحنا " ملكا عليها.

عاش فى " مصوع " رجل سويسرى يدعى " منزنجر " تزوج من صومالية من أهل " البوغوس "، وعينته فرنسا قنصلا لها فى " مصوع ". ساعد " منزنجر " الإنجليز فى حربهم ضد الأحباش، فعينه اسماعيل باشا عام ١٨٧٠ محافظا لمصوع، ثم عينه محافظا لسواحل البحر الأحمر ومديرا لشرقى السودان ومنحه لقب باشا، فأصبح يعرف بإسم " منزنجر باشا ". واستطاع ذلك السويسرى العامل فى خدمة مصر، اقناع الخديوى بإمكان فتح إقليم " البوغوس " بماله من دراية به، وضمه إلى أملاك مصر.

وافق الخديوى على اقتراح منزنجر باشا، فسار فى قوة مصرية إلى عاصمة الإقليم وفتحها بإسم مصر، وقام منزنجر باشا بشراء الأراضى الواقعة حول العاصمة من حاكمها الذى كان على خلاف مع النجاشى، فضم كل أراضى " البوغوس " إلى حكم مصر.

وقد أحس النجاشى الحبشى، بعد ضم الإقليم إلى مصر، بالخوف من ذلك التوسع، فازدادت شقة الخلاف وبلغ التوتر فى علاقات الدولتين إلى مداه.

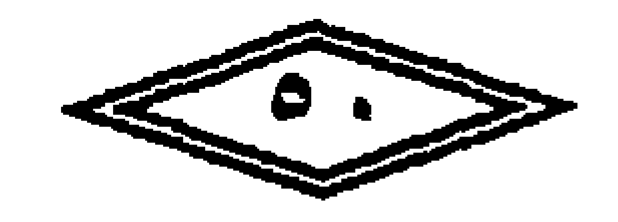


كانت الحبشة تحتاج إلى تحسين علاقاتها مع مصر التى تسيطر على كل المنافذ البحرية التى تحيط بها من كل جانب ، لكن إسماعيل باشا اتخذ قرارا بغزو بلاد الأحباش. ولم يوضح المؤرخون أسباب اتخاذ ذلك القرار الذى لم يكن له أى داع، سوى إمكانية القول أنه دُفع إلى خوض تلك الحرب ضد الحبشة، ولعل السيطرة الإنجليزية على البلاط الخديوى قد مهدت ودفعت إلى اتخاذه، توريطا لخزينة مصر وزيادة مديونتها.

أعد الخديوى جيشين لغزو الحبشة، الأول بقيادة "أندروب بك " لمهاجمة الحبشة من الشمال عن طريق "مصوع "، والثانى جنوبا بقيادة منزنجرباشا. زحفت الحملة الأولى عام ١٨٧٥ حتى مدينة " جونديت " فقابلها النجاشى بجيش حبشى كبير أكثر عددا وحماسا، فلقى جيش مصر هزيمة منكرة وقتل فى المعركة معظم أفراد الجيش ومنهم قائده ذو الأصل الدانمراكى، ومعه أيضا " أراكيل بك نوبار " محافظ مصوع، وفرت فلول الجيش المصرى عائده إلى مصوع.

أما الحملة الثانية بقيادة منزنجر باشا، فقد وصلت إلى "تاجوره " وعسكر على ضفاف بحيرة " أوسا "، لكن رجال القبائل هناك انقضوا عليهم مساء وقتلوهم، ولم ينج منهم سوى عدد قليل فرّ عائدا إلى " زيلع ". وقد قتل منزنجر باشا ومعظم ضباط وجنود الحملة من المصريين.

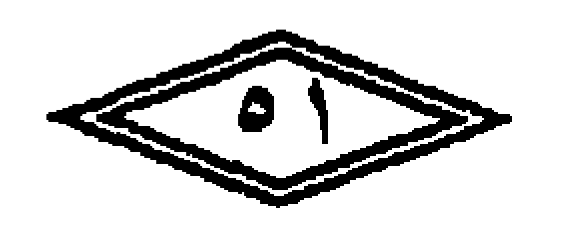
دهش إسماعيل باشا وانزعج عندما وصلته هزائم الجيش



المصرى التى زلزلت هيبة ذلك الجيش القوى الذى انهزمت أمامه جيوش عدة دول. أراد أن يزيل تأثير الهزائم بتجريد حملة عسكرية تعيد الهيبة لجيش مصر. اختار الخديوى السردار راتب، لقيادة الجيش المصرى المكون من خمسة عشر ألف مقاتل، وعين الجنرال " لورنج باشا "، أحد الضباط الأمريكيين الذى التحقوا بخدمة الجيش المصرى أركانا للحرب، ولم يحدث التفاهم المنشود بين القائد وأركان حربه منذ اللحظة الأولى لتحرك الجيش بالسفن من السويس حتى ميناء مصوع.

توغل المصريون فى أحراش الحبشة الوعرة، ووصل الجيش إلى بلدة " قورع " التى تبعد عن مصوع بنحو ٨٨ كيلو مترا فعسكر فيها، يقيم الاستحكامات وبناء حصن بها. ووصل الجيش الحبشى المكون من أربعين ألف مقاتل إلى " قورع " حيث نشب القتال يوم ٧ مارس ١٨٧٦، فى معركة شرسة سقط فيها آلاف القتلى من الجانبين، لكن نتيجة المعركة انتهت بانتصار الأحباش وتشتيت شمل الجيش المصرى وقتل معظم رجاله.

وقد نجح محمد بك رفعت، أحد المسئولين بالحملة والذى أخذه الأحباش أسيرا، فى توقيع عقد للصلح مع النجاشى يوحنا يقضى بانسحاب الجنود المصرية من أرض الحبشة، ورد الأسرى إلى مصر. كان الاتفاق على ان تظل عاصمة إقليم " البوغوس " ضمن الأملاك المصرية. عاد رفعت بك



والأسرى المصريين إلى مصوع، وأبحرت فلول الحملة إلى السويس. بلغت خسائر مصر من الرجال فى الحملات التى شنتها على الحبشة ثمانية آلاف وخمسمائة قتيل.

تكبدت مصر فى هذه الحرب العقيم خسائر فادحة فى الرجال والأموال،وتصدعت هيبتها الحربية من جراء الهزائم المتوالية، وتحملت خزانتها أموالا طائلة فى وقت كانت تعانى فيه من الديون الباهظة وتمر بأشد الأوقات أرتباكا ماليا.

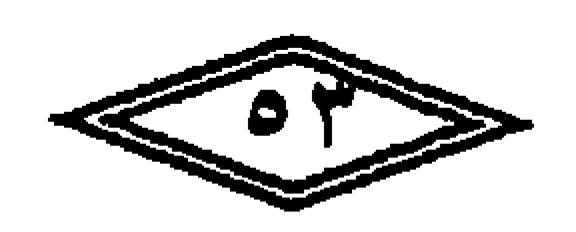
بعدما اشترت انجلترا أسهم مصر فى قناة السويس بثمن بخس عام ١٩٧٥، ورغم ذلك فقد ازدادت مالية مصر سوء على سوء، فتقرر فرض الرقابة الثنائية، الإنجليز والفرنسيس، على الخزانة المصرية عام ١٨٧٦ بعد تدخلهما فى شئون مصر بإنشاء (صندوق الدين). وقد ازداد ارتباك مصر المالى بعد تورطها فى حروب الحبشة، وأصبح للإنجليز اليد الطولى على تيسير الأمور فى مصر. وجاء تعيين " غوردون باشا " حاكما عاما للسودان، كنتيجة للتدخل الإنجليزى. وقام غوردون بتعيين أعوانه من الأجانب حكاما للأقاليم السودانية فعين إيطاليا مديرا لدارفور، وآخرا مديرا لبحر الغزال، وألمانيا لكردفان، وفرنسيا لداره، وأخرا لكبكبية، وألمانيا للصحة ونمساويا للمالية ونمساويا ثان لمنع تجارة الرقيق. ولم يهتم بمديريات خط الاستواء، بل أبعد المصريين عنها.



لكن عهد اسماعيل باشا، امتاز بالاهتمام بالسودان. فقد انتشر الأمن فى ربوعه وانتشرت الزراعة الحديثة بتوسيع زراعة القطن والدخان والتمر. كما اهتمت الإدارة المصرية بالمواصلات فى أرجاء السودان فتم إنشاء الطرق التى كانت تسلكها القوافل. واهتم خديوى مصر بإنشاء خط حديدى بين مصر والسودان، وبالفعل تم مد الخط الحديدى من وادى حلفا إلى " حنك " بطول ٧٥ كيلو مترا، لكنه اضطر لعدم استكمال المشروع بسبب الإرتباك المالى.

واهتم إسماعيل باشا بالتعليم فى إقليم السودان فأنشأ عدة مدارس، ونظم البريد والتلغراف. وكان إتمام فتح أقاليم السودان، يستدعى إرسال البعثات الاستكشافية بصفة مستمرة، وقام ضباط الجيش المصرى برسم الخرائط الدقيقة لكل أنحاء الإقليم.

ذهب ذلك الاهتمام بإقليم السودان من جانب خديوى مصر هباء، بعد أن رسمت إنجلترا سياساتها على فصل إقليم مصر عن إقليم السودان، وكان تعيين غوردون باشا حاكما عاما للسودان، هو المسمار الأخير فى نعش هذه الوحدة التى دفع ثمنها دماء أبناء مصر والسودان من أجل تحقيقها. كانت سياسة غوردون باشا فى السودان هو إساءة علاقة السودانيين بحكومة مصر، فهو يمثل الحكومة المصرية وكانت كل قراراته الضارة تصدر بإسمها، فعمت الكراهية صدور العديد من السودانيين ضد الإدارة المصرية التى يمثلها غوردون باشا.

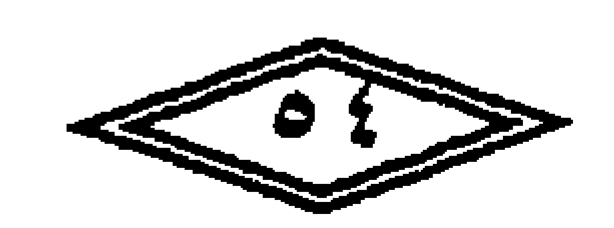


وقد ظل عدد أفراد الجيش المصرى فى السودان يقل تدريجيا، عن طريق سحب العديد منهم للإشتراك فى الحروب العقيمة التى خاضها جيش مصر فى تلك الفترة. وقد أدت الحالة المالية المتدهورة لمصر، أن تم إحالة ٢٥٠٠ ضابط إلى الاستيداع وتسريح عدد كبير من الجند. أصبحت يد غوردون وأعوانه من الأجانب، حرّة تماما فى التصرف كيف شاء فى تفتيت الوحدة المصرية السودانية.

عادت فلول الجيش المصرى من الحبشة، وازدادت خزانة مصر فقرا، وتردت البلاد فى فوضى إشراف لجنة الرقابة الإنجليزية الفرنسية على أمورها. فوجئ إسماعيل باشا وسط تلك المشاكل، بطلب السلطان العثمانى فى إبريل ١٨٧٧، أن يرسل له جيشا مصريا ليساعد بلاده فى حربها مع روسيا. اعتذر الخديوى وهو يشرح للسلطان مدى المشكلات التى تعانيها مصر، لكن السلطان أعاد الطلب محذرا خديوى مصر بأنه لن يقبل منه عذرا.

كانت المشاكل المالية قد جعلت إسماعيل هدفا لغضب الدائنين الأجانب فأخذوا يرهقونه بمطالبهم الشديدة، والدول الأوروبية من ورائهم تساعدهم وتتهدد الخديوى، فخشى إسماعيل باشا إغضاب العثمانيين فى تلك الظروف فقرر الإستجابة لطلب السلطان بإرسال جيش مصرى.

استدعى الخديوى مجلس شورى النواب وعرض عليه ربط ضريبة جديدة تدعى (ضريبة الحرب) لتتمكن الحكومة من إعداد القوة التى سيتم إرسالها إلى الأستانة.

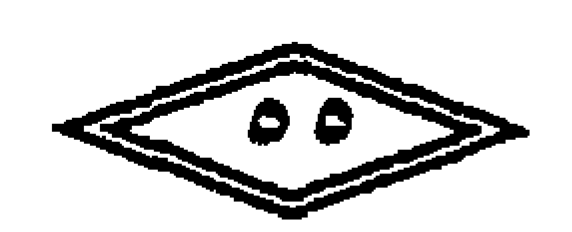


وافق المجلس على طلب الخديوى، فأعدت مصر جيشا من نحو اثنى عشر ألف مقاتل، وأقلعت بهم السفن إلى الأستانة واشتركوا فى الحرب حتى وضعت أوزارها فى مارس ١٨٧٨، فعاد الجيش المصرى إلى بلاده.

كانت الإمبراطورية العثمانية فى تلك الأثناء قد بدأت تتهاوى تحت ضربات الدول الأوروبية بالخطة التى وضعوها لتفتيت بنيانها، وكانت روسيا، هى أكثر الدول الأوروبية طمعا فى أملاك العثمانيين المتاخمة لحدودها. قامت روسيا بتحريض إمارات البلقان على الثورة على الحكم العثمانى حتى تتفرق القوة العثمانية بين تلك الإمارات، فتسنح الفرصة لروسيا للهجوم على أملاك الأستانة وانتزاعها . قامت أول الثورات ضد العثمانيين فى " الهرسك " عام ١٨٧٥ وامتدت إلى البوسنة والصرب.

طلب السلطان من إسماعيل باشا أن يساعده فى حربه ضد الصرب، فبعث الخديوى بقوة من سبعة آلاف جندى مصرى، استطاعوا إخماد ثورة الصرب مظهرين الشجاعة والبسالة المعهودة فيهم تحت قيادة الفريق راشد باشا حسنى، أحد ضابط جيش إبراهيم باشا.

***



7

نظر المدرس إلى طلبته، فرأى الوجوم يخيم على وجوه تلاميذه. قال لهم:

- ماذا بكم يا ابنائى؟

قال أحدهم:

- كان عهدا بائسا يا أستاذ. أبعد المجد الذى جنته مصر فى عهد محمد على باشا وإبراهيم باشا، يصبح جيشنا بتلك الحال. ونفتقر إلى ذلك الحد الذى دعا إلى فرض الإشراف الدولى علينا ؟ لماذا حدث كل هذا يا أستاذ؟

ابتسم المدرس فى مرارة وهو يقول:

- قامت فى مصر خلال تلك الفترة، نهضة علمية وأدبية، قفزت بمصر خطوات هائلة فى العلم والثقافة. فقد أسس اسماعيل باشا عدة مدارس عالية مثل مدرسة المهندسخانة عام ١٨٦٦، ومدرسة الحقوق عام ١٨٦٨ ثم مدرسة دار العلوم عام ١٨٧٢، التى تخرج منها أساتذة اللغة العربية للمدارس الابتدائية والثانوية. وأنشأ إسماعيل باشا عدة أقسام جديدة بمدرسة الطب والولادة.



ومن أجل أعمال هذا الخديوى، إنشاء مدارس البنات فى مصر منذ عام ١٨٧٣، كما أنشأ العديد من المدارس الصناعية والمدارس الثانوية، والمدارس الخصوصية مثل المساحة والمحاسبة واللغة الهيروغليفية، ومدرسة الزراعة.

سكت المدرس قليلا لكى يلتقط أنفاسه. ثم قال:

- وكان اهتمام الخديوى بالأزهر الشريف لا يقل عن اهتمامه بالتعليم الآخر، فشهد الأزهر فى عصره نهضة وإصلاحا شاملين، وكان وصول جمال الدين الأفغانى إلى مصر عام ١٨٧١ عاملا فى نفخ روح النهضة فى هذا الصرح الإسلامى الهام وغرس فيه بذور التقدم الفكرى والعلمى، فبدأت ثمار تلك النهضة تظهر فى المدرسة الأزهرية الحديثة التى حمل لواءها الأمام الشيخ محمد عبده. كما اهتم الخديوى بإنشاء المدارس القبطية الأرثوذكسية فى مصر ووهبها ١٥٠٠ فدان من أجود أطيان مصر لتخصيص ريعها على التعليم فيها.

قال طالب يخاطب أستاذه:

- هل كان اسماعيل باشا ينفذ كل ما يطلبه منه الانجليز؟ وما هى قصة الديون التى كبّلت مصر وانتهت باحتلال أرضنا؟

رد المدرس يقول:

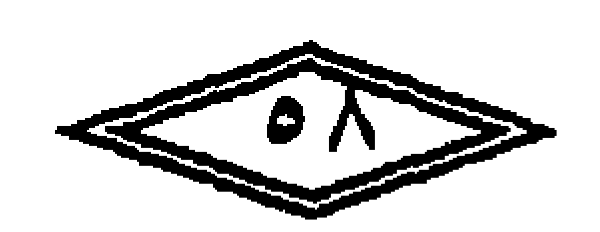
- لابد أن نردّ الأمور إلى أصولها دائما، إذا ما أردنا



التوصل إلى الحقائق. علمتم أن انجلترا كانت تعمل على تواجدها فى مصر. تذكرون حملة "فريزر" التى طردها المصريون فى أول عهد محمد على باشا. لأنكم كما تذكرون فقد كان محمد على باشا أثناء نزول الحملة الإنجليزية فى رشيد موجودا فى الصعيد. وقد استمرت الرغبة الإنجليزية فى امتلاك مصر لا تتراجع، لعلكم تذكرون واقعة نوارين، ثم حربها ضد الجيش المصرى فى الشام أيام إبراهيم باشا. وازدادت هذه الرغبة فى احتلال مصر بعد افتتاح قناة السويس للملاحة وكيف اختصرت مسافة رحلات البواخر الإنجليزية من إنجلترا إلى مستعمراتها فى الهند والشرق الأقصى.

ابتسم المدرس، ثم قال:

- كانت انجلترا تخشى المواجهة العسكرية ضد مصر. نعم. لعلكم تذكرون كيف تراجع الأسطول الإنجليزى بقيادة "تابيبة" أمام الإسكندرية. لجأت إلى الطريقة الأسهل بواسطة إغراق مصر فى الديون، يجب أن لا ننسى أن انجلترا فى تلك الفترة من التاريخ كانت تحت حكم رئيس الوزراء الـداهية. "دزرائيلى" اليهودى، صنيعة روتشليد أبو المال اليهودى الذى تغلغل نفوذه فى كل أوروبا بعد سيطرة أسرته على بنوكها. كان مد إسماعيل باشا بالقروض هو الخطوة الأولى فى سبيل القبض على سياساتها داخليا وخارجيا بيد من حديد.



قال أحد الطلبة منفعلا:

– ولماذا لم يفعل إسماعيل باشا كما فعل جدّه محمد على باشا؟

رد المدرس بهدوء:

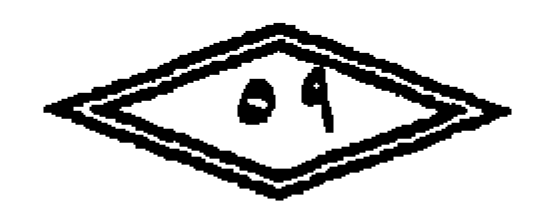
– لكل عصر ظروفه يا بُنيّ. كان الجيش المصرى أيام محمد على باشا من القوة التى استطاعت أن تهدد العرش الإمبراطورى فى الأستانة. ولا تنسوا كيف تضامنت أوروبا بتحريض انجلترا ضد مصر ومحمد على وكبّلته بمعاهدة لندن. وكيف كبّلته بعد الجلاء عن سوريا بتبعيته للسلطان. كانت يد إسماعيل باشا مغلولة. فعلى الرغم من حصوله على لقب خديوى وشبه استقلال مصر عن الأستانة، إلا أن سيف السلطان كان لا يزال مسلطا على رقبته، بل أن السلطان، الذى خضع بدوره لمطالب إنجلترا، أصدر فرمانا بعزل إسماعيل باشا من حكم مصر، عندما طلب الإنجليز من السلطان ذلك.

قال طالب فى حماس:

– نريد أن نعرف يا أستاذ هذا الأمر.

ابتسم المدرس وهو يقول:

– هذا الحديث يطول شرحه. لابد أن نتحدث أولا عن النهضة الشاملة التى عاشتها مصر إبان عهد إسماعيل



باشا. تلك النهضة التى شملت كل مرافق البلاد. انتشر التعليم والأدب العربى، وكأن إسماعيل باشا أراد أن يخلد ذكرى أبيه بطل مصر إبراهيم باشا، فى نشر اللغة العربية والتعليم بين أبناء مصر. وتقدمت الزراعة والصناعة والثقافة فى مصر وأعيد تخطيط العاصمة والمدن عواصم الأقاليم.

استرسل المدرس قائلا:

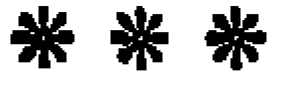
- ثم علينا أن نشرح كيف بدأت عمليات الاستدانة وكيف دُفع إسماعيل باشا إليها لمقابلة النفقات. وكيف كان موقف الخديوى الحاسم ضد التدخل الإنجليزى فى مصر وكيف أدى هذا إلى عزله ونفيه.

سأله طالب:

- ولماذا تم عزل إسماعيل باشا؟

قال المدرس:

- تلك كانت الخطة الإنجليزية، أو قل هى آخر مسمار فى نعش استقلال مصر ووثوب الإنجليز عليها بعد تولى ابن إسماعيل باشا خلفا لأبيه. دعونا ننتظر إلى مرة قادمة، فأحدثكم عن تفاصيل أعمال الخديوى إسماعيل الخالدة فى مصر. هيا بنا.

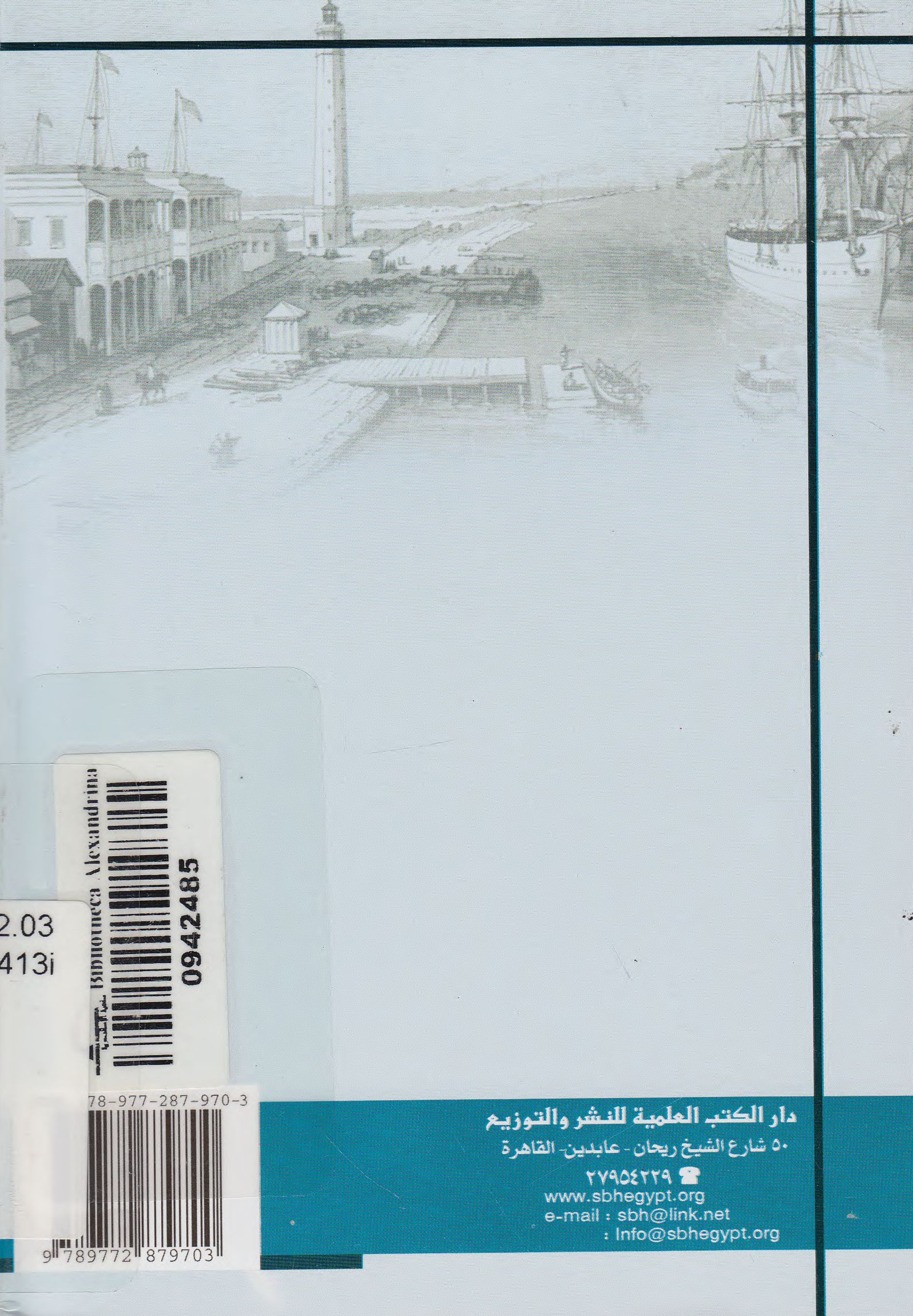




المــراجــع

١- **عصر إسماعيل** - الجزء الأول والجزء الثانى مؤرخ مصر العظيم **عبد الرحمن الرافعى** - الناشر دار المعارف.

٢- **حكومة العالم الخفية - شيريب سبيريدوفيتش** دار النفائس - بيروت.



78-977-287-970-3
9 789772 879703

دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع
٥٠ شارع الشيخ ريحان - عابدين- القاهرة
☎ ٢٧٩٥٤٢٣٩
www.sbhegypt.org
e-mail : sbh@link.net
: Info@sbhegypt.org